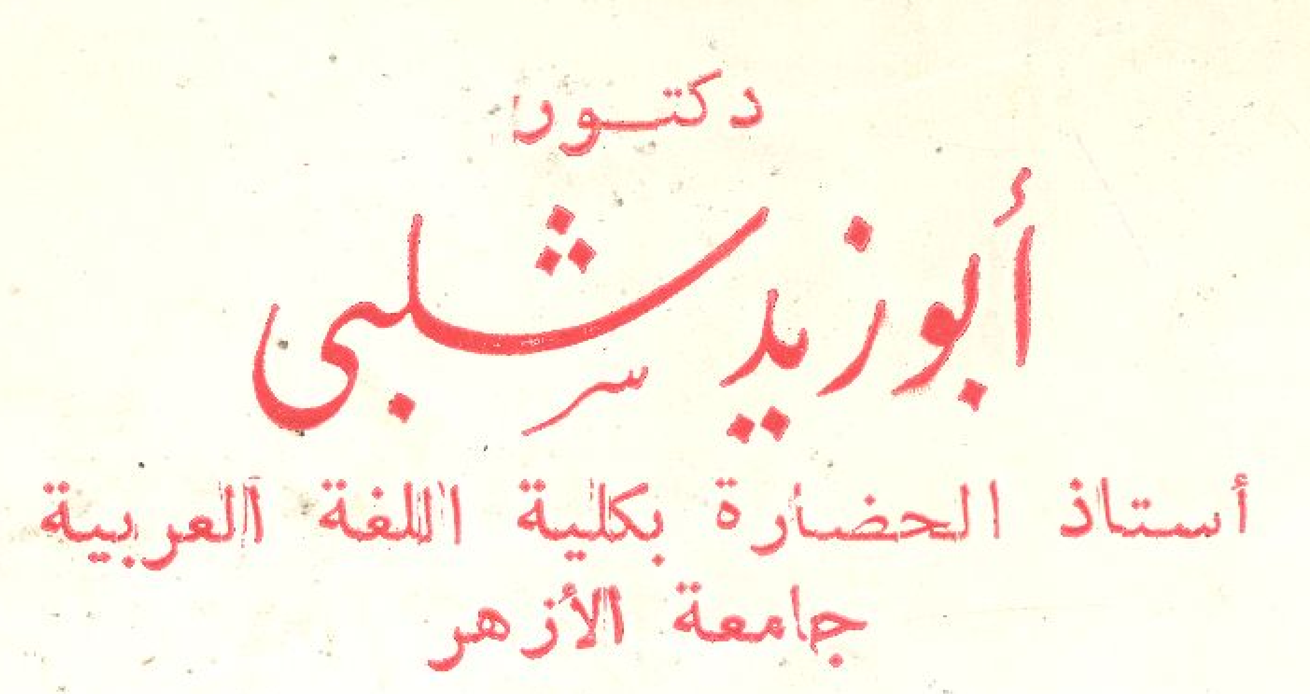
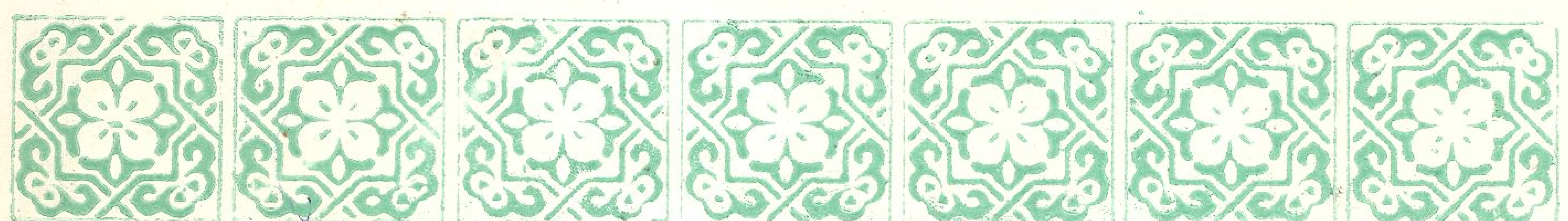
دكتور
أبو زيد شلبي
أستاذ الحضارة بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر





الخلفاء الراشدون







يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
ت : ٣٩١٧٤٧٠



الخلفاء الراشدون

تأليف

أبو زيد شلبي

يطلب من

مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية . عابدين

القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

أميرة للطباعة - ت : ٣٩١٥٨١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه ، وسار على سنته إلى يوم الدين .

وبعد ، فهذه صفوة فى تاريخ الخلفاء الراشدين .

والله أسأل أن ينفع بها ، إنه سميع الدعاء مجيب الرجاء .

أبو زيد شلبي

الأستاذ بكلية أصول الدين

جمادى الأولى سنة ١٣٨٧ هـ

أغسطس سنة ١٩٦٧ م

تمهيـــد

ظل النبي عليه الصلاة والسلام ثلاثا وعشرين سنة يدعو إلى الله ويبلغ رسالة ربه، والروح الأمين ينزل بالقرآن الكريم على قلبه صلوات الله وسلامه عليه.

ولما كانت السنة العاشرة من الهجرة ونزل قوله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا» كان ذلك إيذانا بختام القرآن، فقد أكمل الله للمسلمين دينهم، وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الاسلام دينا، وبلغ محمد صلى الله عليه وسلم الرسالة وأدى الامانة. وقد فهم بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أن أجل النبي عليه الصلاة والسلام قد قرب، فقد روى أصحاب الآثار أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر رضى الله عنه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما يبكيك يا عمر؟ قال: أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا فإذا كمل فإنه لا يكمل شيء إلا نقص، فقال عليه الصلاة والسلام: صدقت فكانت هذه الآية نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما لبث بعد ذلك إلا أحداً وثمانين يوماً.

لحق النبي صلوات الله عليه بالرفيق الأعلى، وبدت حاجة المسلمين عاجلة ملحة إلى خليفة عن نبيهم يسوسهم ويقوم فيهم بأمر الله تعالى

فكان من فضل الله عليهم أن ولى أمرهم الصديق أبو بكر رضى الله عنه وقد يكون من الحسن قبل أن نتكلم على الصديق وخلافته أن نتعرض بكلمة عن الخلافة :

الخلافة (١)

عرف ابن خلدون الخلافة بأنها : « حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا ».

وعرفها صاحب الأحكام السلطانية بقوله : « الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا » .

وعرفها صاحب المقاصد بأنها « رياسة عامة فى الدين والدنيا خلافة عن النبي صلى الله عليه وسلم . »

وعرفها غيرهم بما لا يخرج عن ذلك (٢)

---

(١) الخلافة : النيابة . استخلف فلانا من فلان جعله مكانه .. والخليفة الذى يستخلف ممن قبله ... والخليفة السلطان الأعظم. وخلفه خلافة كان خليفته و بقى بعده. والجمع خلائف وخلفاء ـ لسان العرب، القاموس .

(٢) راجع المسايرة للكمال بن الهمام وشرحها والمواقف والمقاصد فى بحث الإمامة .

والخليفة إذن هو القائم بحراسة الدين ، وسياسة الدنيا نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ونحن إذا رجعنا إلى هذه التعاريف وإلى غيرها من التعاريف التى ذكرها العلماء نجد أنهم جميعاً قد اتفقوا على تقديم أمور الدين والعناية به على أمور الدنيا، وأن سياسة الدنيا يجب أن تكون على أساس الدين وشرائعه ،إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة (١)

وظيفة الخليفة (٢)

كان للنبي صلى الله عليه وسلم فى حياته وظيفتان :

---

(١) ابن خلدون جـ ٢ ص ٥١٨ بتعليق الدكتور على عبد الواحد وافى. وهذا مايجب أن نتدبره دائماً فإن صلاح أمور الناس فى الدنيا رهن بأخذهم بالدين وتشريعاته وتعاليمه .

(٢) يسمى خليفة لكونه يخلف النبي صلى الله عليه وسلم فى أمته ويسمى إماما تشبيها بإمام الصلاة فى اتباعه والاقتداء به ولهذا يقال لها : الإمامة الكبرى . ويسمى أمير المؤمنين لأنه لما مات أبو بكر رضى الله عنه وكان يدعى خليفة رسول الله قيل لعمر : خليفة خليفة رسول الله فقال المسلمون : من جاء بعد عمر قيل له : خليفة خليفة خليفة رسول الله فيطول هذا،ولكن اجتمعوا على اسم تدعون به الخليفة يدعى به من بعده من الخلفاء ، قال بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن المؤمنون وعمر أميرنا ، فدعى عمر أمير المؤمنين ، فهو أول من سمى بذلك ، وقيل فى تسميته أمير المؤمنين غير هذا - راجع مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ٥١٩ ، سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٤٩،الطبرى جـ ٣ ص ٣٧٧ طبعة التجارية ، تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٩٤ .

الأولى أن يبلغ عن الله ما أمر بتبليغه بحكم الرسالة التى اختير لأدائها.

والثانية كونه إماما للمسلمين، ورئيساً أعلى لهم يوجههم نحو الخير ويبعدهم عن الشر ، وإليه المرجع فى كل ما يكون بينهم من أحداث وهو الذى يحكم بينهم بما أنزل الله ، وهو القائد للجند ، إلى غير ذلك من أمور الدولة .

والوظيفة الأولى انتهت بموته صلى الله عليه وسلم بعد تشريع ما أراد الله تشريعه ، فلم يكن لأحد من بعده إلا البناء على قواعد تلك الشريعة .

والوظيفة الثانية ظلت باقية بل كانت ضرورية، إذ لم يكن للمسلمين بد منها حتى لا يفشلوا ، وتذهب ريحهم ، وتدول دولتهم .

ومن ثم لم يروا بدأ من إقامة من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رياسة المسلمين ، إذ أن سنة الله فى خلقه أن كل جماعة مهما قل عددها لابد لها من رئيس يدبر أمورها، ويدير شئونها ويكون به قوامها وإلا لا يقر لها قرار ، ولا يستقيم لها حال .

وجوب نصب الخليفة .

أجمع أهل السنة وجمهور الفرق الإسلامية الأخرى على وجوب نصب الإمام العادل ، يقيم فيهم أحكام الله ، ويسوسهم بقواعد

الشريعة التى أتى بها الرسول صلوات الله عليه [١] يقول صاحب الأحكام السلطانية : وعقدها (أى الإمامة) واجب بالإجماع وإن شذ عنهم الأصم .

ويقول ابن خلدون : « إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه بالشرع بإجماع الصحابة والتابعين، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا إلى بيعة أبى بكر رضى الله عنه ، وتسليم النظر إليه فى أمرهم، وكذا فى كل عصر من بعد ذلك ولم تترك الناس فوضى فى عصر من الأعصار ، واستقر ذلك إجماعا دالا على وجوب نصب الإمام [٢] .

ويقول الكمال بن أبى شريف: « وأما وجوبه علينا فلأنه قد تواتر إجماع المسلمين فى الصدر الأول عليه حتى جعلوه أهم الواجبات وبدءوا به قبل دفن الرسول صلى الله عليه وسلم » « وكرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا فى جماعة [٣] »

---

(١) راجع الفصل لابن حزم جـ ٤ ص ٨٧ .

(٢) مقدمة ابن خلدون جـ ٢ ص ١٩١ ، الأحكام السلطانية ص ٣ .

(٣) المسامرة ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ - الطبرى جـ ٢ ص ٤٤٧ .

شروط الإمامة

أهم الشروط التى رآها العلماء هى :

العلم ، والعدالة ، والكفاية، وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر فى الرأى والعمل . واختلفوا فى شرط النسب القرشى، والجمهور على اشتراطه [١] :

(١) لإجماع الصحابة عليه يوم السقيفة .

(٢) ولاحتجاج قريش على الأنصار بقوله صلى الله عليه وسلم : « الأئمة من قريش [٢] » .

وخالف فى هذا الشرط القاضى أبو بكر الباقلانى وبعض العلماء ومنهم ابن خلدون .

والناظر فى أحوال المسلمين وشئونهم يجد أنهم لم تختلف كلمتهم وتتشعب آراؤهم فى شىء كما اختلفت وتشعبت فى الخلافة [٣] .

---

(١) الأحكام السلطانية الماوردى ص ٤ — مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٥٢٢

(٢) هذا الحديث رواه النسائى من حديث أنس ، ورواه بمعناه الطبرانى فى الدعاء ، والبزار والبيهقى ، وأفرده ابن حجر بجزء جمع فيه طرقه عن نحو من أربعين صحابيا — المسامرة ص ٢٦١ وراجع هامش كتابنا « تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٧٨ » .

(٣) يقول الشهرستانى فى الملل والنحل : « ما سل سيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة فى كل زمان » ص ٢٠ من القسم الأول تخريج الأستاذ بدران .

وكان مدار بحثهم فى أمرين :

الأول : البيت الذى يكون منه الخليفة .

الثانى : الشكل الذى به ينتخب الخليفة .

بيت الخلافة

« من المحقق أن الكتاب لم يشر أى أشارة إلى تعيين بيت أو بطن أو شعب يكون منه خليفة المسلمين، وأما الرسول صلوات الله عليه فروى عنه : « الأئمة من قريش » كما أثر عنه « اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » .

وعقب وفاة النبى صلى الله عليه وسلم كان الناس فريقين :

الأول : يرى عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت .

والثانى : يرى تخصيصها ، وهذا الفريق انشعب إلى شعبتين :

الأولى تخصيصها بقريش بلا فرق بين بطونها ، والثانية تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورأى عدم التخصيص كان للأنصار فإنهم كانوا يرون أن يكون الخليفة منهم ، لما كان لهم من فضيلة النصر والإيواء والأعمال العظيمة التى قاموا بها للإســـلام ، وإن لم يتيسر ذلك كان منهم أمير ومن المهاجرين أمير .

وأخذ بهذا الرأى من بعدهم جميع الخوارج الذين كانوا يخرجون على الخلفاء فى الأزمنة المختلفة ومنهم من كان يتسمى بأمير المؤمنين كقَطَرىّ ابن الفجاءة التميمى ، فإنهم كانوا يرون أن القصد من إمامة المسلمين إنما هو توجيههم إلى الصلاح ، وإبعادهم عن الشر، والسير فيهم بأوامر دينهم ، غير ناظرين فى ذلك إلى بيت أو قبيلة ، بل إلى ما فى الشخص من المقدرة والكفاية ، ويستندون فى رأيهم إلى قاعدة وضعها القرآن الكريم ، وبينتها السنة الشريفة وهى : أن التقوى أساس التفاضل بين الناس ، قال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » .

ورأى التخصيص بقريش كان فى ذلك الوقت رأى الجمهور ، لما رواه لهم أبو بكر من حديث : « الأئمة من قريش » وقد بين رضى الله عنه طرفا من علة هذا التخصيص بقوله : « إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج ، وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس، ولا يدين العرب إلا لهذا الحى من قريش [1] » .

ومن هنا استنبط العلامة ابن خلدون أن السر فى تخصيص قريش

---

(١) لمكان الكعبة ، ولأنهم أوسط العرب نسبا ودارا ـ الطبرى جـ ٣ ص ٤٤٦ طبعة التجارية، المسامرة ص ٢٥١

بالخلافة يرجع إلى ما كان لهم من العصبية والتقدم على سائر بطون العرب ، بهذا يعترف لهم الناس ، ولا ينكرونه عليهم ، حتى إنهم كانوا يستثنونهم إذا افتخروا بقول قائلهم :

فأما النـاس ما حاشا قريشاً　　فإنا نحن أفضلهم فعالا

فإذاً كان الخليفة منهم لا ينتظر أن يعارضه أحـــد من القبائل الأخرى مهما يكن قدره عظيما .

وبنى على ذلك أنه لمـا كانت العلة هي العصبية التى بهـا يـكون اجتماع الـكلمة ، وكانت عصبية قريش قد جاء عليها وقت ظهر فيـه ضعفها ، حتى لم تعد قادرة على حمـاية البيضة والدفاع عنهـا ، وكانت الشريعة مبنية على العلل والحكم فى كل زمان بحسبه ـ كان من الممكن أن تـكون الخلافة فى غير قريش ممن فيهم تلك القوة والعصبية المجتمعة .

ورأى التخصيص بالقرابة القريبة كان لعلى بن أبى طالب ومن شايعه ، وكان يرى نفسه أحق بالخلافة من سواه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما لم يكن له من يساعده على نيل ذلك الحق الذى رآه لنفسه أذعن لرأى الجمهور [١] .

---

(١) محاضرات المرحوم الشيخ الخضرى ، مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٤٢٣ وما بعدها ، الطبرى ج ٢ ص ٤٤٦ تاريخ الخلفاء للسيوطى ، المسامرة للكمال بن أبى شريف ، تاريخ الإسلام المرحوم الشيخ النجار .

شكل الانتخاب

لم يرد فى الكتاب الكريم نص صريح يبين شكل انتخاب خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، اللهم إلا تلك الأوامر العامة التى تتناول الخلافة وغيرها، مثل وصف المسلمين بقوله: « وأمرهم شورى بينهم » ومثل قوله: « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » وقوله: « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ».

كذلك لم يرد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أوصى بالخلافة لأحد من بعده، كما لم يرد عنه بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة إلا بعض نصائح تبعد عن الاختلاف والتفرق، كأن الشريعة أرادت أن تكل الأمر للمسلمين يختارون من نظم الحكم مايلائم أحوالهم، ويتمشى مع تطور حياتهم، إذ أن الأحوال تتغير والمجتمعات تتطور وما يصلح اليوم قد لا يصلح غداً ولو لم يكن الأمر كذلك لمهدت قواعده، وأوضحت سبله كما أوضحت سبل الصلاة والصيام وغيرها، ومن ثم كان التشريع الإسلامى فى هذه الناحية كما فى غيرها فى أسمى مراتب الكمال.

وهاك طرائقهم فى الانتخاب:

الطريقة الأولى:

طريقة الانتخاب الاستشارية ، وقد كانت فى انتخاب أبى بكر حيث اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ورشحوا للخلافة سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وسمع بذلك بعض المهاجرين ، فأسرع إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح ، وحصل بين الفريقين حوار وجدل وأخيراً بايع المجتمعون أبا بكر ، وفى اليوم التالى بايعه المسلمون البيعة العامة عن رضى واختيار .

الطريقة الثانية:

طريقة العهد وهى : أن يعهد الخليفة القائم إلى شخص آخر بعده فقد رأى أبو بكر أن يعهد إلى رجل من المسلمين يكون رضى فيهم تتوفر فيه التقوى والكفاية والقدرة على الاضطلاع بمهام الدولة حتى يوفر على الأمة ما عساه أن يحدث من اختلاف يهددهم بالفرقة والانقسام كما كاد أن يحدث عقب وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فوقع اختياره على عمر رضى الله عنه ، ولكنه رأى أنه ليس من حقه أن يستبد برأيه فى اختيار من يقوم بأمر المسلمين من بعده فاستشار كبار الصحابة فوافقوا على اختياره ، وكتب عهداً بذلك. وقد وافق المسلمون على هذا الاختيار .

الطريقة الثالثة :

طريقة الاختيار الشورى من أفراد يعينهم الخليفة الموجود، وهى الطريقة التى انتخب بها عثمان بن عفان ، فإن عمر لما ظن وأحس بدنو أجله خاف أن يترك المسلمين بدون خليفة لئلا يتنازعوا ويختلفوا ولم يكن أمامه من لو استخلفه يكون مطمئن النفس من قبله ، فلم يشأ أن يتحمل أمر المسلمين حيا وميتا ، فاختار ستة من الصحابة، وممن يرى أنه لا يتطلع لأمر الخليفة غيرهم ، وهم : على ، وعثمان ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ، والزبير، وجعل ابنه عبد الله معهم على أن يؤخذ رأيه فقط وليس له من الأمر شىء ، حتى لا يقال : إن عمر ورثها بنيه ، ووضع لهم نظاما ينتخبون به الخليفة من بينهم ، فقد أمر أن يجتمع هؤلاء الستة ، ويختاروا الخليفة فى مدة لا تزيد على ثلاثة أيام ، وجعل الأغلبية الرأى النافذ المقبـــول ، وإذا تساوت الأصوات كان الفريق الذى فيه عبد الرحمن بن عوف مرجحا ، وبعد مشاورات اختير عثمان ووافقت الأمة على اختياره ، وبذلك أصبح خليفة باتفاق الجميع .

اختيـار على :

كان لبعض المسلمين مآخذ على حكم عثمان ، ثم انتهى الأمر بالثورة عليه وقتله بيد الثوار ، وقد رغب هؤلاء الثوار فى مبايعة على فأبى ،

ثم قبل وبايعه أكثر من فى المدينـــة من المسلمين ، وبذلك تمت بيعته [١] وبهذا يتبين :

(١) أن انتخاب الخلفاء الراشـــدين كان بمبايعة المسلمين وبمشورتهم استجابة للشورى التى جاء بها القرآن الكريم وندبت إليها السنة النبوية .

(٢) أنه لم يحاول أحد من الخلفاء الراشدين أن يجعل الخلافة وراثية حتى إن عمر رضى الله عنه لما رأى أن يكون ابنه عبد الله مع الستة الذين جعل الخلافة فى واحد منهم لم يجعل له إلا المشورة فقط وليس له من الأمر شيء .

ومما يلفت النظر أن الخلفاء الأربعة لم يكونوا من بطن واحد من بطون قريش ، بل كانوا من بطون مختلفة فكان أبو بكر من بنى تيم ، وعمر من بنى عدى ، وعثمان وعلى من بنى عبد مناف .

هذا ، وقد كان الخليفة عقب انتخابه يخطب الناس خطبة يبين لهم فيها منهجه فى الحكم ، وسياسته التى اعتزم أن يسير عليها ، ونذكر على سبيل المثال خطبة الخليفة الأول ، فإنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله

(١) خرج عليه معاوية وطالب بدم عثمان كما خرج عليه طلحة والزبير وعائشة فاضطرب أمر المسلمين وانتهى الأمر بقتله كرم الله وجهه

قال : « أما بعد أيها الناس فإنى وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى منكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله تعالى بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله ».

ولما قتل على وصفا الجو لمعاوية تغير نظام الشورى الذى كان أساس انتخاب الخلفاء الراشدين وتحولت الخلافة إلى ملك يؤول إلى صاحبه بالقوة والسياسة. وبذلك ظهر نظام التوريث ، فكان الخليفة يعين ولى عهده ، ويأخذ البيعة له من وجوه الناس ، وكبار القواد فى حضرته ، كما كانت تؤخذ البيعة له فى الأقاليم بحضور الوالى نيابة عن الخليفة ، وصار الأمر على ذلك فى عهد الأمويين والعباسيين ، ومن بعدهم فحرموا المسلمين هذا الحق الذى جاء به القرآن وأيدته الأحاديث النبوية ، وغلوا فى ذلك حتى كانوا يولون عهدهم اثنين بل ثلاثة . وهذه الطريقة كما يقول السيد أمير علي : « قد جمعت فى نفسها كلا من النظام

الديمقراطى ، ونظام الحكم المطلق فى آن واحد مع تجردها عن مزايا كل منهما ، إذ كانت البيعة تتم بأى طريقة سواء أكانت بالوعيد أو الوعود الخلابة ، ويصبح الانتخاب على كل حال شرعياً »[١].

(١) راجع النظم الإسلامية للدكتور حسن إبراهيم وزميله ـ تاريخ الإسلام السياسى للدكتور حسن إبراهيم .

أبو بكر الصديق

رضى الله عنه

١١ – ١٣ هـ ٦٣٢ – ٦٣٤ م

أبو بكر الصديق رضى الله عنه

١١ — ١٣هـ ٦٣٢ - ٦٣٤

هو أبو بكر عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر التيمى، يلتقى نسبه بالنبى صلى الله عليه وسلم فى مرة بن كعب وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر من تيم بن مرة .

وإليك كشفاً يبين نسب الخلفاء الراشدين الأربعة واتصالهم بنسب النبى صلى الله عليه وسلم

- كعب
  - عدى ← رزاح ← قرط ← عبد الله ← رباح ← عبد العزى ← نفيل ← الخطاب ← عمر رضى الله عنه
  - مرة
    - كلاب ← قصى ← عبد مناف
      - عبد شمس ← أمية ← العاص ← عفان ← عثمان رضى الله عنه
      - هاشم ← عبد المطلب
        - عبد الله ← محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم
        - أبو طالب ← على كرم الله وجهه
    - تيم ← سعد ← كعب ← عمرو ← عامر ← عثمان «أبو قحافة (١)» ← أبو بكر رضى الله عنه

(١) لم تذكر لنا الروايات التاريخية سبب هذه الكنية وإن كان بعض المتأخرين استنبط أنه كنى بها لأنه بكر بالاسلام قبل غيره .

ولد بعد ميلاد النبي عليه الصلاة والسلام بسنتين، وربما تكون بيئته قد أتاحت له أن ينشأ كما ينشأ أعاظم الرجال وأماثلهم ، فبنو تيم من أكرم بطون قريش وأشرفهم ، كانت إليهم من مفاخر قريش فى الجاهلية الاشناق وهى الديات والمغارم وقد آلت هذه المفخرة قبل الاسلام إلى أبى بكر ، فكان إذا احتمل شيئا أمضت قريش حمالته وقامت معه وإن احتملها غيره خذلوه [1] .

كان رضى الله عنه ذا يسار يحمل الكل ويكسب المعدوم ،وكان عالما بأنساب العرب وبخاصة قريشا خبيراً بالمجتمع الذى يعيش فيه سهلا لين العريكة رضى الخلق لا يقلبه الهوى،قريباً إلى قلوب العامة والخاصة [2] وهو إلى جانب ذلك قوى الإرادة ماضى العزيمة كما يتضح من مواقفه المشهورة إزاء الأحداث الجسام التى وقعت فى عهده، كما أن حسن رأيه ورجاحة عقله وعدم ميله مع الهوى جعلته لا يشارك قومه فى كثير من عاداتهم ومعتقداتهم .

---

(١) ذكر المؤرخون أن من انتهى إليه الشرف من قريش فى الجاهلية فوصله بالإسلام عشرة رهط من عشرة أبطن وذكروا أن منهم بنى تيم وكانت إليهم الأشناق ـ راجع تفصيل ذلك فى تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ص ٧٠٤ من المجلد الثالث المخطوط بمكتبة الأزهر ، العقد الفريد جـ ٢ ص ٣١ ، كتابنا سيف الله خالد بن الوليد .

(٢) لعل فى كل هذه الأمور إشارة لا تخفى لأولويته بالخلافة .

ومن أحسن التعريف به ما قاله ابن هشام فى سيرته : كان أبو بكر رجلا مألفا لقومه محببا سهلا، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الامر : لعلمه وتجارته وحسن مجالسته .

وكان لهذه الصفات الجليلة التى تميز بها رضى الله عنه أثر أى أثر فى إسلام كثير من كبار الصحابة فقد أسلم بدعوته عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد وغيرهم من السابقين الأولين إلى الإسلام .

ولعل فى هدوئه ورضا خلقه ، ورغبته عما كان فى قريش من عادات ما ألف بينه وبين النبى عليه الصلاة والسلام من قبل الإسلام ، وربط بين قلبيهما برباط الألفة والمحبة ، فصحبه قبل البعثة ثم كان أول رجل آمن برسالته وسارع إلى تصديقه حتى لقب بالصديق وقال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : مادعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر .

ولما هاجر النبى عليه السلام اختاره لصحبته فكان « ثانى اثنين إذ هما فى الغار » وكان له وزير صدق ورفيقا فى كل مشاهده وصاحب

رايته يوم تبوك، وجعله أميراً على الحج وخليفته على الصلاة وهى أفضل دين المسلمين. هذه بعض شمائل الصديق رضى الله عنه والتى من أجلها اختاره المسلمون خليفة عن نبيهم صلوات الله وسلامه عليه . .

انتخابه للخلافة :

على أثر وفاة النبى صلى الله عليه وسلم استولى الذهول على المسلمين فقد كانوا يستبعدون وفاة النبى صلى الله عليه وسلم حتى إن عمر صار — من فرط الذهول — يتوعد من يقول بموت النبي عليه الصلاة والسلام وتوهم البعض أنه فى غيبوبة. ولم يكن أبو بكر رضى الله عنه حاضراً وقت الوفاة ، فلما علم بموت النبي عليه الصلاة والسلام جاء مسرعا فدخل عليه فألفاه مسجى فى ناحية من البيت فكشف عن وجهه الشريف وبكى وجعل يقبله ويقول : « ما أطيبك حيا وما أطيبك ميتاً » ثم خرج إلى الناس فقال : « أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » ثم تلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً . وسيجزى الله الشاكرين » فاستيقن المسلمون موت النبي فانفجروا بالبكاء هلعا وحزنا على نبيهم الكريم الذى فقدوه ، ووجموا حتى لا يدرون ما يصنعون ، وخر عمر — وهو القوى — إلى الأرض وما تحمله رجلاه .

فى هذه اللحظات الحزينة المذهلة ! وبينما المسلمون يقومون بتجهيز النبي صلى الله عليه وسلم إذ بلغ عمر بن الخطاب أن الأنصار مجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة لاختيار خليفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلم أبا بكر بذلك فأسرعا إلى مكان الاجتماع لتدارك الأمر قبل فواته وانضم إليهما فى الطريق أبو عبيدة بن الجراح وفاجأ ثلاثتهم المجتمعين فى السقيفة .

كان الأنصار أوسهم وخزرجهم قد اتجهت أنظارهم إلى سعد بن عبادة الخزرجى لشرفه وتقدمه ،ولأنه أحد النقباء ليلة العقبة وقد خطب فيهم مبينا ماللأنصار من الفضل وأنه لا ينبغى أن ينازعهم فى هذا الأمر أحد فقالوا له : « أصبت ووفقت » .

ثم ترادوا الكلام فيما بينهم فقال قائل منهم · فإن أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا : نحن عشيرته وأولياؤه فماذا نقول لهم؟فقال له آخر: نقول: منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا فقال سعد لما سمعها: هذا أول الوهن .

دخل أبو بكر وصاحباه السقيفة على الأنصار المجتمعين وهمّ عمر أن يتكلم بكلام هيأه فى نفسه ،فقال له أبو بكر: « رويداً حتى أتكلم ثم انطق بعد بما أحببت » وتكلم هو ـ وكان رجلا وقوراً له أناة ـ

فأثنى على المهاجرين وبين مالهم من فضل السبق إلى الإسلام وما احتملوه في سبيل دينهم ، ثم عطف على الأنصار فأشاد بهم ولم يترك شيئاً مما لهم من المآثر إلا عرض له وذكرهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الأئمة من قريش » وبين لهم أن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى الأمور دونكم فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما فضلهم الله به . ثم دار حوار شديد بين عمر والحباب بن المنذر الخزرجي فاتجه أبو عبيدة إلى الأنصار وقال: « يامعشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير ، فقام بشير بن سعد الخزرجي والد النعمان بن بشير فقال : « يا معشر الأنصار إنا والله لئن كنا أولى فضيلة وجهاد وسابقة في هذا الدين ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبغى به من الدنيا عرضا فإن الله ولى المنة علينا بذلك إلا أن محمداً من قريش وقومه أحق به وأولى وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هـــذا الأمر أبداً ، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » فهدأ ذلك من ثائرة كثير من النفوس فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا فقالا : لا والله ، لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين وثانى اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين

المسلمين، فمن ذا ينبغى أن يتقدمك أو يتولى هذا عليك فبادر عمر فمد يده إليه فبايعه ثم أبو عبيدة ثم بشير بن سعد فقال الحباب لبشير : عققت؟ أنفست على ابن عمك الإمارة ؟ فقال: لا والله ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقاً جعله الله لهم، وبايعته الأوس مخافة أن يصير الأمر إلى الخزرج، وأقبل الناس على أبى بكر يبايعونه حتى كادوا يطؤون سعد ابن عبادة وهو مريض لايقدر على النهوض ولم يتخلف عن بيعته إلا على بن أبى طالب ومن معه ممن كان مشغولا بجهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبهذا تمت بيعة أبى بكر لأن جمهور المسلمين قد بايعه وفى مقدمتهم كبار الصحابة.

وبيعة السقيفة هذه تعرف بالبيعة الخاصة فقد كانت مقصورة على من كان حاضراً فى السقيفة أما البيعة العامة فكانت فى اليوم التالى بالمسجد النبوى.

شبهة مغرض:

يزعم بعض المستشرقين ممن فى قلوبهم مرض بكراهة الإسلام من أمثال « لامنس وبر وكلمان» أن بيعة أبى بكر ليست كما تذكرها الروايات العربية وإنما كانت نتيجة لمؤامرة سياسية دبرها أبو بكر بالاتفاق مع عمر وأبى عبيدة بن الجراح ويستدلون على ذلك بأمور منها :

(١) حضور هؤلاء الثلاثة اجتماع السقيفة فى وقت واحد .

(٢) انفرادهم دون بقية المهاجرين بحضور هذا الاجتماع .

(٣) أن عمر كان أول من بايع أبا بكر .

(٤) أن أبا بكر بدوره لما شعر بدنو أجـــله نفذ الاتفاق فعهد بالخلافة إلى عمر .

(٥) أن عمر لما قتل قال : لو كان أبو عبيدة حيا لعهدت بها إليه فكأن عمر يتمنى حياة أبى عبيدة لتنفيذ الاتفاق الذى تم بينهم قبل ذهابهم إلى السقيفة .

ونحن نرد هؤلاء المغرضين إلى الصواب إن طلبوه وإلى الحق إن أرادوه فنقول :

(١) إن حضور هؤلاء الثلاثة دون غيرهم اجتماع السقيفة فى وقت واحد لم يكن عن تدبير فليس واحـــد منهم كان يتوقع مثل هذا الاجتماع المفاجىء حتى يقوم ثلاثتهم بتدبير خطة مضادة تفسد على المجتمعين أمرهم وتجعل الأمر للمتآمرين الثلاثة حسبما اتفقوا عليه .

(٢) أن أبا بكر كان وقت وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فى بيته بالسنخ ثم لما حضر كان مشغولا مع آل النبى صلى الله عليه وسلم بتجهيزه .

(٣) إن عمر كان مذهولا مشدوها حتى إنه سقط على الأرض من فرط الذهول.

(٤) إن أبا عبيدة لم يكن مع أبى بكر وعمر حينما ذهبا إلى الاجتماع وإنما التقى بهما فى الطريق فاصطحباه معهما فكيف تمت المؤامرة بين الثلاثة فى مثل هذه الظروف المذهلة الحزينة والمفاجئة فى الوقت نفسه والتى كان التأخر لحظة عن الذهاب إلى الاجتماع فيها قد يذهب بالفائدة المرجوة ويؤدى إلى فتنة بين المسلمين المهاجرين منهم والأنصار لايعلم مداها إلا الله تعالى.

(٥) إن هؤلاء الثلاثة ذاهبون إلى اجتماع لايعرفون مداه ولاما عسى أن يكون من أمره فأية مؤامرة تصدر عن عاقل على أمر مجهول؟! ألم يكن من المحتمل أن يذهبوا فيجدوا المجتمعين قد بتوا فى الأمر؟ إنها إذن مخاطرة وليست مؤامرة.

(٦) إن كلام ثلاثتهم كان محوره أن الخلافة فى قريش وبعبارة أخرى للمهاجرين مطلقا لا لأبى بكر ولا لأحد من صاحبيه، أليس من المحتمل أن يلحق بهم بعض المهاجرين ممن هو فى منزلتهم فينتخبه الناس؟ فأية مؤامرة هذه؟!

(٧) لما مال المجتمعون نحو رأى أبى بكر من أن الخلافة فى قريش أخذ يد كل من عمر وأبى عبيدة وقال: « هذا عمر وهذا أبو عبيدة

فأيهما شئتم فبايعوه [1] ، ألم يكن من المحتمل أن ينتخب الناس أحد الرجلين فكانت تفشل المؤامرة فأى ضمان أو شبه ضمان لأبى بكر ؟!

(٨) إن قبول أبى بكر لها كانت تمليه الضرورة ولو لم يقبل لما كان أحد يستطيع أن يقدر ما عساه أن يكون من أمر المسلمين ومن ثم قال عمر : إن بيعة أبى بكر كانت فلتة وقى الله شرها « أى كانت عفواً وعلى غير استعداد وبلا تدبيراً سابق » .

(٩) إن قولة عمر هذه صريحة كل الصراحة فى أن بيعة أبى بكر كانت توفيقاً من الله للمسلين ولم تكن تدبيراً من أحد .

(١٠) إن تهيئة عمر لكلام أراد أن يبدأ به الحديث مع الأنصار وطلب أبى بكر منه أن يتمهل ريثما يقول هو ما فى نفسه يدل على أنه ليست هناك خطة مرسومة .

(١١) إن مبادرة عمر إلى بيعة أبى بكر كانت تمليها مصلحة المسلمين ويحتمها اتجاه الاجتماع فقد جاءت لحظة حانت فيها الفرصة لحسم الموقف وتطلبت البت السريع حتى لا يُنقض على الناس غزلهم ، ومن أولى من عمر ـ القوى فى الحق ـ بحسم مثل هذا الموقف فيكون أول من يبايع ؟

---

(١) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٤٦

(١٢) إن عهد أبي بكر لعمر كان بعد أن استشار كبار الصحابة وخاصة من كان يظن أنه أهل للخلافة وقد أجمع الكل على تصويب رأى أبي بكر فى عهده لعمر ، لما كان يتحلى به من صفات يعرفها كل المسلمين والتى لا يتصف ببعضها كثير من الناس .

(١٣) إن تمنى عمر أن يكون أبو عبيدة حياً فيعهد إليه بالخلافة لم يكن تمنيا لأبي عبيدة خاصة ، وإنما كان له ولمن كان مثله رضاً من المسلمين وأهلا لتولى أمورهم ، فقد تمنى أن يكون خالد بن الوليد حياً فيعهد إليه بالخلافة وقد كانت بينهما نفرة ، وتمنى أن يكون صهيب حياً فيعهد إليه بالخلافة وليس صهيب بقرشي ولا عربى الأصل .

(١٤) إن النبي صلى الله عليه وسلم وإن لم يعين أحداً للخلافة عنه لكنه أشار إشارة - لا تخفى - إلى أبى بكر: فقد كان صاحب رايته يوم تبوك ، وأمّره على الحج فى السنة التاسعة للهجرة ، وجعله خليفة فى الصلاة . والصلاة أفضل دين المسلمين .

(٥) وأخيراً كانت حجج أبى بكر على الأنصار بينة قاطعة جعلتهم يذعنون راضين .

وبعد: فإنا نسأل هؤلاء المغرضين لِمَ جعلوا أبا بكر هو الأول دون أحد صاحبيه؟ فإن قالوا: إن أبا بكر كان أفضل الثلاثة فى نظر المسلمين

فإذا قدم كان ذلك أدعى إلى الاستجابة ، قلنا لهم: نعم وقد سرتم معنا فى الطريق المستقيم .

كل هذا وغيره مما لا يتسع له المقام ، يجب أن يتنبـــه له هؤلاء المغرضون فيزيلوا الغشاوة التى أعمتهم وما ران على قلوبهم من كراهة للإسلام حتى يروا الحق حقاً إن كانوا منصفين . ولا نظنهم كذلك .

منهجه فى الحكم :

بعد أن تمت بيعته رضى الله عنه أعلن منهجه فى الحكم وأوضح سياسته التى اعتزم أن يسير عليها بتلك الخطبة العظيمة الجامعة التى قال فيها بعد أن حمد الله و أثنى عليه بما هو أهله : « أما بعد أيها الناس فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيـــانة ،والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله،لا يدع أحد منكم الجهاد فى سبيل الله فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله تعالى بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم،قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

قام أبو بكر فى مدة خلافته القصيرة بأمور جسام تدل على قوة إرادته ومضاء عزيمته وثقته بربه ، وهذه الأمور هى :

(١) إنفاذ بعث أسامة .

(٢) مجاهدته المرتدين من العرب .

(٣) حمله بالعرب على دولتى الفرس والروم .

(٤) جمعه القرآن الكريم .

إنفاذ بعث أسامة بن زيد :

كان النبي عليه الصلاة والسلام قد أعد بعثا قبيل مرضه ليسيره إلى مشارف الشام لإرهاب العرب والروم ، وللقصاص لزيد بن حارثة وصحبه الذين قتلوا فى (مؤتة) وقد جعل إمرة هذا الجيش لأسامة بن زيد وهو إذ ذاك شاب حدث[1] وفى الجيش أبو بكر وعمر وكثير من جلة الصحابة وذوى السن منهم . وبينما الجيش يتأهب للمسير مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوقف خارج المدينة حتى كانت الوفاة .

ولما توفى النبي صلى الله عليه وسلم وبويع أبو بكر بالخلافة كان أول مافعل هو إنفاذ هذا البعث على الرغم من الأخبار المثبطة من ارتداد عامة العرب وحرج موقف المسلمين بالحجاز فخاطبه كبار الصحابة فى أن يؤجل بعث أسامة ليكون عدة للمسلمين فأبى وصمم على إنفاذ البعث مهما كان الأمر وقال : « لو تخطفتنى الكلاب والذئاب لأنفذته كما أمر به رسول الله ولا أرد قضاء قضى به رسول الله » .

---

(١) كان له يومئذ ثمانى عشرة سنه — التنبيه والإشراف ص ٢٤١ .

ثم كلم فى أن يستبدل بأسامة رجلا أسن منه يقود الجيش فغضب غضباً شديداً وقال : يوليه رسول الله ويعزله أبو بكر؟! واشتد فى الكلام مع عمر الذى كان يكلمه فى ذلك عن بعض الأنصار وأخذ بلحيته وقال: عدمتك أمك وثكلتك يابن الخطاب ! استعمله رسول الله وتأمرنى أن أنزعه !!

ولما تأهب الجيش للسير شيعه أبو بكر وأوصاه بهذه الوصية التى يجب أن يهتدى بها قادة الجيوش والتى يقول فيها : أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لاتخونوا ، ولاتغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شىء فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا ، اندفعوا باسم الله » .

شيع أبو بكر جيش أسامة وهو ماش وأسامة راكب فقال أسامة : « ياخليفة رسول الله ، والله لتركبن أو لأنزلن فقال أبو بكر : والله لاتنزل ووالله لا أركب ، وما علىّ أن أغبّر قدمى فى سبيل الله ساعة » ؟!

ولما هم بالرجوع قال لأسامة متلطفا فى خطابه : إن رأيت أن تعينى بعمر فافعل . فأذن أسامة لعمر بالمقام .

سار أسامة بجيشه إلى جنوبى فلسطين وغزا بلاد قضاعة وأخافهم وغنم منهم . وقد استغرقت حملته هذه نحواً من شهرين .

إن هذا البعث قد أحاطت به أمور تلفت نظر سواس الأمم وقادة الجيوش ، منها :

(١) أن عمر كان فى هذا البعث ، ووجوده فى المدينة بجوار الخليفة أمر ضرورى فلم يشأ أبو بكر أن يستبد على أسامة بإبقائه بل قال له فى تلطف : إن رأيت أن تعينى بعمر فافعل .

ولعمرى إن هذا الطلب من الخليفة والتلطف فيه لهو تربية عالية لاحترام ذى السلطان فى سلطانه ، وإلى جانب ذلك فإن أبا بكر يعرف أن أسامة مولًى من سلطان أعلى من سلطانه ، فلا حق له فى أن يفتات عليه.

(٢) ولما شيع الجيش شيعه وهو ماش وأسامة راكب فأقسم أسامة على الخليفة ليركبن أو لينزلن هو ، فلم يقبل الخليفة وقال : وما على أن أغبّر قدمى فى سبيل الله ساعة ؟!

وفى الحق ليس هناك أدب فوق أدب أسامة ، وليس هناك تكريم لذى سلطان أسمى من تكريم أبى بكر لأسامة ، اللهم إنه هدى الإسلام.

(٣)أن أبا بكر لم يتردد فى إنفاذ البعث ولم يقبل أن يوجله أو يستبدل بأسامة رجلا آخر أسن منه ، ولو فعل لكان قد سن للناس لأول مرة مخالفة ما أمر به الرسول عليه الصلاة والسلام أمراً حتما ، وكان يدور على لسانه وقت مرضه التأكيد بإنفاذ بعث أسامة [1] .

(٤) إن انفاذ البعث - كما يقول ابن الأثير - « أعظم الأمور نفعاً للمسلمين، فإن العرب قالوا: لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه» [2] .

---

(١) عن عروة قال : جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى مرضه : أنفذوا جيش أسامة. السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ٥٠ .

(٢) قال السيوطى ص ٥٠ توجه أسامة فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا : « لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم » .

حُرُوبُ الـرِّدَّة

حروب الردة

ردة العرب وأسبابها:

كان الكثير من سكان الجزيرة العربية من أهل البادية والأعراب الرحّل الذين لم يتعودوا الخضوع للقانون أو النظام - جفاةً لم يهذبهم دين، ولم ترق بهم مبادىء اجتماعية، وأسس مدنية، حديثى عهد بكفر والنفس بطبيعتها تنزع إلى قديمها وتحن إلى مألوفها وتود الرجوع إلى خيمها. والإسلام قد ألزمهم تكاليف خاصة وأخذهم بنظم وتشريعات لا يلائم الكثيرُ منها طباعهم، وما نشئوا عليه من جاهلية كمنعهم من الأخذ بالثأر، وحدهم على الزنى، وشرب الخمر، ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم ولم يتأثروا بعد بالإسلام ويتدبروه فتزكو نفوسهم. وكثير منهم أسلم تبعاً لإسلام رؤسائهم وليس حباً فى الإسلام ورغبة فيه حتى لقد أدى بهم جهلهم بالدين وهديه وشعائره أن فهموا أن إيتاء الزكاة ماهو إلا نوع من الإتاوة يلزمون بدفعه ولم يفقهوا أنها صدقة تؤخذ من ذوى اليسار منهم لترد على أهل الحاجة فيهم، وأنها رباط تعاونى جليل ومن أهم الأسس التى ترقى بالمجتمع وتجعله فى عيشة راضية وتسير به إلى حياة طيبة هادئة هانئة.

وهناك أفراد تطلعوا الآن يكون لهم ما للنبي صلى الله عليه وسلم

فتنبئوا فى حياته عليه الصلاة والسلام واتبعهم قومهم عصبية، أو أنفة من سيادة قريش تلك السيادة التى ظلت حيناً من الدهر فى الجاهلية وبلغت الذروة بنبوة محمد صلوات الله عليه، وإن ذلك ليبدو واضحاً فى التفاف بنى حنيفة حول مسيلمة الكذاب حتى لقد قال قائلهم له : « أشهد إنك لكاذب وإن محمداً الصادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ».

« وما إن سمع هؤلاء وأولئك بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم حتى ظنها المتنبئون فرصة لانتشار أمرهم وإعلاء ذكرهم، وظنها غيرهم فرصة كذلك للتخلص من هذا الدين والتخلى عن فروضه وتكاليفه. وبخاصة المالية منها كالزكاة، وبذلك كانوا فريقين :

١ — فريق امتنع عن أداء الزكاة .

٢ — فريق تبع المتنبئين ورفض الدين كله .

اضطربت جزيرة العرب وكفرت الأرض وتصرمت « ونجم النفاق واشرأبت اليهود والنصارى والمسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة، لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم وقلتهم وكثرة عدوهم » (١) .

هكذا صارت جزيرة العرب كالبركان الثائر، هياج واضطراب!

(١) الطبرى جـ ٣ ص ٢١٢ ، السيوطى ص ٤٩ .

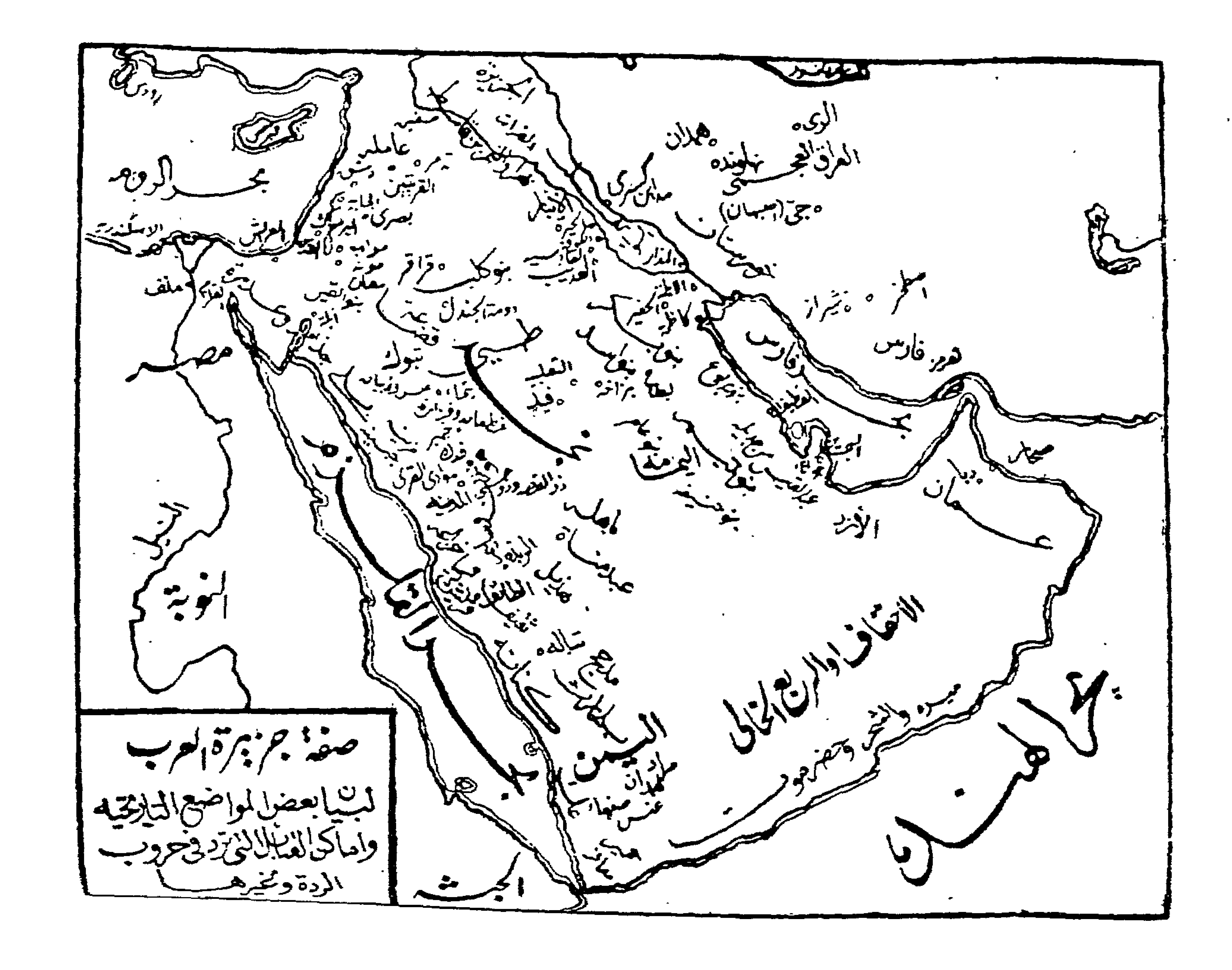
وردة وإلحاداوزيغ عن الدين والصراط المستقيم اولم يتنزه عن هذه الفتنة الحالكة إلا أهل مكة والمدينة والطائف وقليل من أهل البادية والأعراب يمكننا بعد ذلك إرجاع أهم أسباب الردة إلى ما يأتى :

١ — النعرة العربية العصبية القبلية ، والتسامى والاعتزاز بالنفس والحرية المطلقة التى نشئوا عليها مما دفعهم إلى عدم الخضوع لقانون أو نظام أوسلطان ، « وهم إنما دانوا للنبي صلى الله عليه وسلم لاعتقادهم أنه مؤيد من السماء ، فلما لحق بالرفيق الأعلى عادوا إلى سابق عهدهم واستنكفوا من الخضوع لأبى بكر ، وفى ذلك يقول قائلهم :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا   فيا لعباد الله ما لأبى بكر ؟
أيورثها بكراً إذا مات بعده   وتلك لعمر الله قاصمة الظهرا

٢ — رغبة الأعراب ومن لم يتذوق حلاوة الإيمان فى التخلص من نظم الإسلام وفى العودة إلى ما كانوا عليه فى جاهليتهم قال تعالى: « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » .

٣ — اعتقادهم أن الزكاة إتاوة فرضت عليهم كانوا يدفعونها للنبى صلى الله عليه وسلم من غير إيمان بها وبفائدتها ، يرشد إلى ذلك قول قرة ابن هبيرة لعمرو بن العاص : إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالإتاوة فإن أعفيتموها من أخذ أموالها تسمع لكم وإن أبيتم فلن تجتمع عليكم .


صفة جزيرة العرب
لبيان بعض المواضع التاريخية
واماكن القبائل التي ترد في حروب
الردة وغيرها
بحر الروم
مصر
النيل
النوبة
الحبشة
بحر الهند
الاحقاف او الربع الخالي
اليمن
اليمامة
فارس
عمان
تبوك
المدينة
مكة
الطائف
همذان
نهاوند
العراق العجمي
الري
شيراز
هرمز
حضرموت

قتال المرتدين

عرفنا أن كثيراً من قبائل العرب كانوا ينقمون من قريش غلبتهم وسيادتهم عليهم ، وأنه قد ظهر فى أنحاء الجزيرة أفراد أرادوا التشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم فادعوا النبوة وتبعهم قومهم عصبية كما كان منهم من أقر بالصلاة وامتنع عن الزكاة. وكان موت النبي صلى الله عليه وسلم فرصة للتخلص من فروض الإسلام عامة والزكاة خاصة .

تلك هى حال العرب بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وهى حال تتطلب لتهدئتها وتسكينها إرادة صارمة وعزيمة ماضية وثقة بنصر الله وتأييده. وهذه الصفات مكتملة كانت فى الخليفة أبى بكر رضى الله عنه.

كان كثير من الصحابة ـ ومن بينهم عمر ـ من رأيهم أن يقبل أبو بكر من مانعى الزكاة أقرارهم بالصلاة ، وأن يسكت عن مطالبتهم بالزكاة وذلك تأليفاً لقلوبهم إلى أن يعود بعث أسامة ويشتد ساعد المسلمين ولكنّ أبا بكر ـ ذا الإرادة الصارمة ـ لم يقبل هـــذا الرأى وقال : « والله لو منعونى عقالا (أو عَنَاقا) كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه » وبعد ترادّ اقتنع المعارضون برأى أبى بكر وسداده.

صحت عزيمة أبى بكر على محاربة المرتدين وعلى ألا يصطنع معهم الهوادة واللين ، ولكنه كان فى قلة من أصحابه بعد إنفاذ جيش أسامة

فأخذ يطاولهم غير أن طليحة الأسدى أغرى جموعا من عبس وذبيان وفزارة وغطفان بمهاجمة المدينة فتجمعوا ونزلوا بذى القصة وبالأبرق بالقرب من المدينة وأرسلوا وفداً منهم إلى أبى بكر يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فأبى أن يجيبهم إلى ما أرادوا .

عاد الموفدون إلى القوم بجواب أبى بكر وأفضوا إلى قومهم بما رأوا من قلة عدد المسلمين وأطمعوهم فى منازلتهم ولم يفت ذلك أبا بكر وخشى أن تبيت هذه الجموع المدينة فجعل على أنقابها عليا وطلحة والزبير وابن مسعود وأخذ أهل المدينة بملازمة المسجد وبالاستعداد خوف البيات .

لم يمض إلا ثلاث ليال حتى طرق العدو المدينة غارة مع الليل فصدهم الذين كانوا على الأنقاب وخف الخليفة فى أهل المسجد على النواضح للقائهم وبعد قتال منح الله المسلمين أكتافهم وغنموا أبلهم وأمتعتهم .

كانت هذه الموقعة الصغيرة كبيرة النتائج والآثار ، وكان نصر المسلمين فيها نصراً مؤزراً فقد عز بها الإسلام وثاب كثير من المرتدين إلى رشدهم وبعثوا بصدقاتهم .

عاد أسامة بعد أن أدى مهمته على خير الوجوه فخرج أبو بكر إلى

ذى القصة وخالد بن الوليد يحمل لواءه فجند فيها الجند وعقد الألوية وسير الجيوش لإخضاع العرب وإرجاعهم إلى الجادة .

عقد أحد عشر لواء لأحد عشر قائداً وعين لكل قائد الجهة التى يقصدها والقوم الذين يلى قتالهم وأنفذهم جميعاً ليعجل بإخماد الفتنة قبل أن تستفحل ويستشرى شرها فيصعب إطفاؤها ، وفصل الأمراء بجيوشهم بعد أن كتب لهم عهداً صورته واحدة كما كتب للمرتدين كتاباً واحداً [1] (منشوراً) أرسله إليهم ليكون نذيراً لهم بين يدى جنده ، وإعذاراً إليهم قبل الإيقاع بهم ، وهذا المنشور هو أول منشور عام يقرأ فى مجامع الناس وأنديتهم :

وهذه أسماء الأمراء والجهات التى وجهوا إليها .

(١) خالد بن الوليد ـ لقتال طليحة بن خويلد الأسدى ببزاخة ، فإذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له .

(٢) عكرمة بن أبى جهل ـ لقتال مسيلمة الكذاب .

(٣) شُرَحبيل بن حسنة ـ وجه فى أثر عكرمة فإذا فرغا من أمر مسيلمة قصد قضاعة .

---

(١) العهد والكتاب موجودان بنصهما فى كتب التاريخ المبسوطة . راجع الطبرى ج ٣ ص ٢٢٦ .

(٤) المهاجر بن أبي أمية ـ لقتال الأسود العنسي بصنعاء معونة الأبناء على قيس بن المكشوخ ومن أعانه ، ثم يمضي إلى كندة بحضرموت .

(٥) حذيفة بن محصن ـ إلى دبا[1] بعمان .

(٦) عرفجة بن هرثمة ـ إلى أهل مهرة وأمره هو وحذيفة أن يجتمعا وكل أمير على صاحبه فيما وجه إليه .

(٧) سويد بن مقرن ـ إلى أهل تهامة اليمن .

(٨) العلاء بن الحضرمي ـ إلى أهل البحرين .

(٩) طريفة بن حاجز ـ إلى بني سليم ومن انضم إليهم من هوزان.

(١٠) عمرو بن العاص ـ إلى جماع قضاعة ووديعة والحارث .

(١١) خالد بن سعيد بن العاص ـ إلى مشارف الشام .

ويلاحظ أن هؤلاء الأمراء ليس فيهم أمثال عمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة بن الجراح ولعل ذلك لأن أبا بكر كان في حاجة إلى بقائهم بجواره للانتفاع بمشورتهم في تلك الأحوال الحرجة .

---

(١) دبا بفتح أوله والقصر مدينة قديمة مشهورة بعمان . معجم البلدان ج ٤ ص ٣٠

وسنخص وقائع خالد بن الوليد بشيء من التفصيل لأنها أهم الوقائع ولأنه فاقيء عين الردة وهو الذى قضى على موطن الخطر الحقيقى الذى كان يهدد الدولة الإسلامية ولأن وقائعه كانت فى الواقع هى التى مهدت للوقائع العظمى التى كانت بين المسلمين وبين الفرس والروم والتى أدت إلى تلك الفتوح العظيمة .

طليحة الأسدى

هو طليحة بن خويلد الأسدى من بنى أسد ابن خزيمة تنبأ فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم بعد حجة الوداع حين علم بمرضه عليه الصلاة والسلام طمعا فى أن يكون له ما للنبي صلوات الله عليه ، وظاهره كثير من العرب للعصبية فكثر أتباعه ممن اجتمع عليه من أسد وغطفان وطيء وعبس وذبيان ومن لف لفهم فوجه النبي صلى الله عليه وسلم ضرار بن الأزور إلى بنى أسد وأمرهم بالقيام فأشجوا طليحة وأخافوه وضعف أمره حتى لم يبق إلا أخذه سَلَماً إلا أن ضراراً ضربه بالسيف فنبا عنه فشاع بين الناس أن السلاح لا يحيك فيه فتزايد جمعه وكثر أتباعه.

ولما توفى النبي عليه الصلاة والسلام عظم أمره وتفاقم خطره وسجع الأكاذيب وادعى أن جبريل يأتيه فوجه إليه أبو بكر أمهر قواده خالد بن الوليد فى أربعة آلاف مقاتل فسار ذلك القائد المظفر فى اتجاه خيبر ليعمى الأخبار عن طليحة ثم مال شرقا نحو طيء ولم

يبدأها بقتال ولكنه أرسل إليهم سيدهم عدى بن حاتم فنصحهم فأصغوا للنصيحة وعادوا إلى الإسلام وأمدوا خالداً بألف فارس منهم . ولما تم ذلك لخالد أتجه نحو طليحة فالتقى به (بالبزاخة) [1] والتحم الجيشان واقتتل الناس قتالا مريراً قال فيه شاعرهم :

ويوما على ماء البزاخة خالد أثار بها فى هبوة الموت عثيراً

ولما اشتدت وطأة القتال على بنى فزارة أراد قائدهم عيينه بن حصن الفزارى أن يطمئن من طليحة على وحى السماء فكلمه فى ذلك مرة ثم مرة فأدرك أنه كذاب فانصرف هو وقومه عنه وانهزم الناس وغشوا طليحة ، فلما أحس بالخطر وثب على فرسه وأردف امرأته خلفه وقال لقومه : من استطاع منكم أن يفعل هكذا فليفعل فارفض جمعه ولحق هو بالشام ثم أسلم وحسن إسلامه وصفح عنه ابو بكر وكان له فى حروب الفرس أثر محمود واستشهد فيها فى أيام عمر بن الخطاب .

أقام خالد على البزاخة شهراً يصعّد فيها ويصوب ويدعو الناس ويأخذ الصدقات ودخلت بنوا أسد والقبائل النجدية القريبة منها فى الإسلام .

---

(١) بزاخة بالضم والخاء المعجمة : ماء لبنى أسد .

مالك بن نويرة

كان بنو تميم قد وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا فأمر على بطونهم أمراء منهم،فلما سمعوا بموت النبي صلى الله عليه وسلم كان منهم من ظل على وفائه فأرسل الصدقة إلى أبي بكر، ومنهم من تردد ثم فاء إلى أمر الله،ومنهم من منع الزكاة حتى قوتل وهو مالك بن نويرة وكان ذلك الخلاف مدعاة لأن يشتغل بعضهم ببعض، وفيما هم كذلك أقبلت عليهم سجاح بنت الحارث اليربوعية فى جموع بنى تغلب، وكانت قد ادعت النبوة وتبعها جمع كثير من نصارى تغلب، فلما قربت من ديارهم وادعت مالك بن نويرة سيد بنى يربوع فثناها عن قصدها من غزو أبى بكر وحملها على غزو المخالفين له من تميم لكن اتحادهما لم يدم ولم يتم لها أمر فى بنى تميم فعولت على المسير إلى حرب مسيلمة باليمامة وبينما الأمر كذلك كان خالد قد فرغ من طليحة ومن تابعه وسار يريد مالكا بالبطاح [1] فلما سمعوا بقدومه تفرقت جموع سجاح وعادت إلى الجزيرة وتحرج موقف مالك عندما أسرعت بطون تميم تظهر إسلامها وترسل زكاتها إلى خالد فارتبك وتحير ولكنه بدلا من أن يظهر إسلامه كغيره ويطلب السلامة لقومه ونفسه أمر قومه بالتفرق فى رءوس الجبال فلما قدم خالد البطاح لم يجد فيها أحدا فبث

(١) البطاح بالضم منزل لبنى يربوع ـ معجم البلدان ج ٢ ص ٢١٤ .

سراياه ، فجاءته إحداها بمالك فى نفر من قومه ،واختلف رجال السرية فى شأنه، فقائل إنهم أجابوا إلى داعية الإسلام وهو الأذان ، وقائل إنهم لم يؤذنوا، فأقبل عليه خالد يحاوره فسمع بالصلاة والتوى بالزكاة ،فقال له خالد : أما علمت أن الصـــلاة والزكاة معاً لا تقبل واحدة دون الأخرى؟ فقال: قد كان صاحبكم يقول ذلك فقال له خالد : أو ما تراه لك صاحبا ؟ والله لقد هممت أن أضرب عنقك ،ثم تجاولا فى الـكلام فقال إنى قاتلك فقال له أوبذلك أمرك صاحبك؟ قال : وهذه بعد تلك لا أقالنى الله إن لم أقتلك . فأمر به وبأصحابه فقتلوا .

وقيل: إنهم لما اختلفوا فى أمرهم،أمره بهم خالد فحبسوا وكانت ليلة شاتية شديدة البرد فأمر مناديا : أن دافئوا أسراكم (والمدافأة فى لغة كـنانة : القتل) فظن القوم أنه يريد قتلهم فقتلوهم وسمع خالد الواعية فخرج وقد فرغوا منهم فقال : « إذا أراد الله أمراً أصابه » .

والرأى الأول هو الذى ذكرته معظم كتب التاريخ الموثوق بها بل هو مجمع عليه كما قال ابن سلام فى طبقاته[1] وسواء أكان الدافع بخالد على قتلهم هو الرأى الأول أم الثانى فإن تزوجه ليلى امرأة مالك

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٣ طبقات الشعراء لابن سلام ص ٤٩ ، الإصابة ج ٦ ص ٣٦ ، تاريخ أبى الفداء ج ١ ص ١٥٨ ، وغيرهم

كان عملاً غير لائق ساء ذلك بعض كبار الصحابة ممن فى جيش خالد فقدم منهم أبو قتادة الصحابى الجليل على أبى بكر وأنهى إليه ما صنع خالد فلما سمع بذلك عمر قال لأبى بكر : « إن فى سيف خالد رهقاً » وألح عليه فى عزله فقال : « هيه يا عمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد فإنى لا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين » واستقدم أبو بكر خالداً فقدم واعتذر فعذره أبو بكر وقبل منه وعنفه فى التزويج فى أثناء الحرب وكانت تعيب عليه العرب. وودى مالكا من بيت المال .

ورد أبو بكر على عمر بقوله : « تأول فأخطأ » لابد أن يكون حكما بعد تثبت واقتناع وأن خالداً اعتذر لديه بعذر مقبول ، ويؤيد ذلك أنه ودى مالكا فقط (دون قومه الذين قتلوا معه) ودون من قتل على شاكلته من قومه ، كما أنه وداه من بيت المال .

مسيلمة الكذاب

تنبأ مسيلمة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وأحل لقومه كثيراً من المفاسد ووضع عنهم الصلاة فظاهره قومه من بنى حنيفة على أمره .

ولما توفى النبى عليه الصلاة والسلام استشرى شره وعظم أمره فلما عقد أبو بكر الألوية لحروب الردة ، وجه عكرمة لمحاربة مسيلمة ووجه فى أثره شرحبيل بن حسنة وأمرهما أن يجتمعا ، فتعجل عكرمة لنفرد بالنصر .

ووقائع بنى حنيفة فنكبوه ، فكتب أبو بكر إلى شرحبيل أن يتمهل ريثما يأتيه المـــــدد مع خالد ولكنه بادر خالداً بقتال مسيلمة فنكب كسابقه .

ندب أبو بكر خالداً لقتال مسيلمة ـ بعد أن رضى عنه فيما كان منه من أمر مالك ـ وأوعب معه الناس فسار حتى قدم على عسكره بالبطاح ومن ثم نهض فى قريب من ثلاثة عشر ألفا يريد اليمامة .

ولما بلغ مسيلمة دنو خالد خرج فى أربعين ألف مقاتل أو أكثر [1] فعسكر بعقرباء [2] لأنها فى طرف اليمامة ودون الأموال وليكون ريف اليمامة وراء ظهره .

التقى الجمعان عند قرية أباض [3] وعلى مقدمة المسلمين خالد ، ودارت رحى الحرب وصبر الفريقان وتراميا على الموت ونزل بالناس مالم يروا مثله قط فانكشف جيش المسلمين لكثرة من فيه من الأعراب وخلص العدو إلى فسطاط خالد وخيمة زوجه ليلى فنادى القراء من

---

(١) يقول ابن كثير فى فضائل القرآن إن مسيلمة التف حوله من المرتدين قريب من مائة ألف .

(٢) عقرباء منزل من أرض اليمامة قريب من قرقرى من أعمال العرض راجع معجم البلدان لياقوت ج ٦ ص ١٩٤ ، الطبرى ج ٣ ص ٢٤٧ .

(٣) أباض بضم الهمزة وتخفيف الباء قرية بعرض اليمامة .

كبار الصحابة : ياخالد خلصنا وميزنا من هؤلاء الأعراب فأداه حسن رأيه وطول خبرته بالحروب إلى أن يستجيب لكبار الصحابة فى رأيهم فنادى : امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حى ، ولنعلم من أين نؤتى. فلما امتازوا قال بعضهم لبعض « اليوم يستحى من الفرار » ثم حمل خالد بالجيش على العدو وبرز حتى كان أمام الجيش فانتمى وجعل لا يبرز له أحد إلا قتله وهو يرتجز .

أنا ابن أشياخ وسيفى السخْتْ أعظم شىء حين يأتيك النفْتْ[1]

وصدق معه الحملة كبار الصحابة فما رئى يوم كان أحدّ ولا أعظم نكاية من ذلك اليوم وانهزم العدو والتجأ إلى حديقة كانت هناك فاقتحمها المسلمون عليهم وأعملوا فيهم السيف فانهزموا وقتل مسيلمة .

وقد قتل فى هذه الموقعة نحو من إحدى وعشرين ألفا من بنى حنيفة وقتل من المسلمين نحو ألف ومائتى رجل منهم نحو خمسمائة من القراء مما جعل أبو بكر بمشورة عمر يجمع القرآن خوفا من الضياع بموت حفاظه .

صالح مجاعة بن مرارة أحد رؤساء بنى حنيفة خالداً على الذهب والفضة والسلاح ونصف السبى ثم وصله كتاب من أبى بكر بقتل

---

(١) السخت: الشديد ، والنفت: الغضب .

كل محتلم منهم ولكن خالداً وفى لهم بما عاهدهم عليه وأرسل وفداً منهم لأبى بكر بعد أن فاءوا إلى أمر الله وراجعوا الإسلام .

كانت هذه الموقعة من المواقع الفذة الهائلة ولذا قال فيها شاعرهم :

فلله عينا من رأى مثل معشر   أحاطت بهم آجالهم والبوائق

فلم أر مثل الجيش جيش محمد   ولا مثلنا يوم احتوتنا الحدائق

أكر أو أحمى من فريقين جمعوا   وضاقت عليهم فى أباض البوارق

الأسود العنسى

لما أسلم أهل اليمن كان بأذان عاملا للفرس عليه فأقره النبي صلى الله عليه وسلم على عمله فلما مات جعل ابنه شهراً واليا على صنعاء وعين على بقية البلاد ولاة آخرين بعد أن قسمها إلى عشر عمالات وجعل معاذ بن جبل معلما متنقلا على هذه الولايات .

وقبل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام قام رجل من خمس إحدى قبائل قحطان اسمه الأسود العنسى ـ وكان كاهنا ـ فتنبأ وتبعه قوم من أعراب اليمن فقوى بهم وسار بهم إلى نجران فاستولى عليها لعشر من مخرجه ثم قصد صنعاء وقاتل شهراً فقتله واستولى عليها وهزم الأبناء (وهم مولدة الفرس باليمن) لخمس وعشرين ليلة من مخرجه فاستطار أمره وصار لا يميل إلى قوم إلا دخلوا فى أمره أو صانعوه تقية . فكان

أهل اليمن فى أمره قسمين قسم يتقيه وهو على إسلامه وقسم تابعه وارتد عن دينه،فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم كتابا على يد وبر بن يوحنس إلى من بصنعاء من الأبناء يأمرهم بالقيام على دينهم والنهوض إلى العمل فى أمر الأسود وقتله مصادمة أو غيلة وأن يبلغوا عنه من رأوا أن عنده نجدة ودينا .فاتفق الأبنـــاء مع قيس بن عبد ياغوث المرادى رئيس جند الأسود ـ وكان قد تغير عليه ـ ومالأتهم أزاد امرأة شهر التى اغتصبها الأسود بعد قتل زوجها ثم بعد خطوب تمكن فيروز أحد الأبناء من قتله غيلة داخل قصره ونادوا فى فجر تلك الليلة بشعار المسلمين وهو الأذان وولوا أمرهم معاذ بن جبل الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم قد أرسله معلما متنقلا بين الولايات اليمنية وكتبوا إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام بمقتل الأسود فوافى رسولهم المدينة صبيحة اليوم الذى توفى فيه النبى صلى الله عليه وسلم وكان بين خروج الأسود ومقتله نحوا من أربعة أشهر .

ولما بلغ أهل اليمن وفاة رسول الله صلى عليه وسلم عادوا إلى ما كانوا عليه من الخلاف فبعث أبو بكر إلى من بقى على إسلامه من سادهم يأمرهم بالصمود للمرتدين حتى توافيهم النجدات . ولم يكن طويل وقت حتى وصلتهم بقيادة المهاجر بن أبى أمية، ثم جاء على أثره عكرمة بن أبى جهل بعد أن انتهى من عمان ومهرة فهزم المرتدون

واستردت صنعاء وأسر زعماء الفتنة وعلى رأسهم قيس بن عبد يا غوث وعمرو بن معدى يكرب. ثم ذهب المهاجر إلى كندة بحضرموت وهناك اجتمع مع عكرمة وجنده فغلبوا كندة وأسروا سيدهم الأشعث ابن قيس وبعثوا إلى أبي بكر يبشرون بالفتح .

ردة البحرين

لما أسلم أهل البحرين - وهم قبائل من ربيعة - ولى عليهم النبي صلى الله عليه وسلم المنذر بن ساوى فلما توفى النبي عليه الصلاة والسلام وتوفى بعده المنذر ارتدوا، ثم فاءت قبائل عبد القيس إلى الإسلام استجابة لنصيحة سيدهم الجارود بن المعلى، وتمت قبائل بكر بن ربيعة على ردتها يقودها الحطم بن ضبيعة واستغوى كثيراً من أهل القطيف وهجر وأرادت بكر أن تحي دولة المناذرة واجتمع رأيهم على أن يلقوا بمقاليد الملك إلى المنذر بن النعمان المعروف بالغرور .

وجه إليهم أبو بكر العلاء بن الحضرمي فاصطدم بهم وهزمهم ببلدة (دارين) وقتل الحطم وأمر المثنى بن حارثة بتتبع المنهزمين وكتب إلى أبي بكر بالفتح ورجوع العرب من ربيعة إلى الإسلام ، وهناك وقائع أخرى انتصر المسلمين على المرتدين ، ولكنها ليست بذات بال ولم يحل الحول على خلافة أبي بكر حتى أن المرتدين قد غلبوا على أمرهم وضرب الإسلام بجرانه في جزيرة العرب .

انتصار المسلمين فى حروب الردة

أسبابه — نتائجه

أسبابه : فاء المرتدون إلى أمر الله وأعلنوا طاعتهم للخليفة . ومن الحسن بعد ذلك أن نبحث عن الأسبـــاب التى جعلتهم يعودون إلى الإسلام فى ذلك الزمن الوجيز الذى لم يعهد من قبل . ومن أهم هـذه الأسباب :

(١) أن جنود الإسلام كانوا يقاتلون عن عقيدة وإيمان راسخ بنصر الله، وأن من مات منهم مات شهيداً ومن عاش منهم عاش سعيداً لهذا كانوا لايبالون بالموت بل كانوا يطلبونه رغبة فى الاستشهاد والفوز بما عند الله .

(٢) كان أكثر المرتدين يقاتلون للعصبية القبلية أو عن فطرة خاطئة وشتان بين من يقاتل عن عقيدة وإيمان، ومن يقاتل للعصبية أو لمبادىء خاطئة لاسلطان لها على النفوس .

(٣) حسن تزجية الجيوش وتوجيه الإمدادات فى الوقت المناسب والقيادة الممتازة التى أبدت من المهارة والبسالة مالا يقدر قدره وما كان له أثره فى النصر .

(٤) ما كان يتحلى به أبو بكر من قوة الإرادة ومضاء العزيمة التى لاتنال منها الخطوب والأحداث .

فلاعجب بعد ذلك أن انتصر المسلمون وكان انتصارهم باهراً حاسماً .

نتائجه : كان لانتصار المسلمين فى حروب الردة نتائج ذات بال منها :

(١) أنه ردع كل من كانت تسول له نفسه الخروج عن الإسلام أو ادعاء النبوة .

(٢) أنه أعاد للعرب وحدتهم التى أوجدها الإسلام وطهر نفوسهم من الشرك والنزوع إلى الجاهلية الأولى .

(٣) أنه أعدهم للقيام بما ندبهم إليه الإسلام من العمل على نشر دين الله وإعلاء كلمته .

(٤) أنه علمهم فى ساحة القتال دروسا فى الحروب وثقفهم فيها وجعل منهم قادة مظفرين وجنوداً مدربين مما جعلهم يظهرون على دولتى الفرس والروم ويحتلون مكان الصدارة فى العالم بعد أن كانوا منزوين فى جزيرتهم .

ظهور الدولة الإسلامية

ظهور الدولة الإسلامية

ظل العرب أجيالا متطاولة قابعين فى جزيرتهم قانعين بصحرائهم يتشاحنون على كلئها ويتنازعون على وشلها ومن حولهم دولتا الفرس المجوسية والروم النصرانية تتنازعان سيادة العالم ويعترف لهما العرب بالسلطان والغلب وقد ملكتا عليهم أمرهم فى أخصب بقاعهم ، حتى جاء الإسلام فأوجد منهم تلك الأمة العظيمة التى قهرت هاتين الدولتين الكبيرتين وسلبتهما سلطانهما :

وقد يكون حسناً قبل أن نتكلم على قهر العرب هاتين الدولتين العاتيتين أن نلم إلمامة خفيفة بحالها قبل الإسلام .

الفــــرس

الفرس من أقدم دول العالم وأشدهم بأسا وآثاراً فى الأرض ، وكانوا فى بادىء أمرهم صابئة يعبدون الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب ، ثم غلبت عليهم المجوسية[١] وهى عبادة النار وصارت الدين الرسمى[٢] للدولة ثم فشت فيهم نحله الثنوية[٣] وهى القول بإلهين : إله

---

(١) على يد زرادشت .

(٢) ترتب على ذلك أن اضطهدت الدولة أتباع الملل الأخرى وبخاصة النصارى كلما وقعت حرب بينها وبين الدولة البيزنطية .

(٣) على يد مانى الزنديق .

الخير وإله الشر ، ثم ظهرت بدعة المزدكية[1] وهى مذهب إباحى هدام كما ظهرت النصرانية بمذهبيها المتعاديين : النسطورى واليعقوبى . وهكذا تعددت فيهم النحل والأديان ، وتنازعتهم المعتقدات الفاسدة ، وشغلتهم عما يجب عليهم لمجتمعهم .

ولم تكن حالتهم السياسية بأحسن من حالتهم الدينية ، فقد كان بينهم وبين الهياطلة فى الشرق والترك فى الشمال حروب لا يخمد أوارها كما كان لهم جيرانهم من الرومان وقائع متوالية وملاحم متتالية وكان من أثر تخبطهم فى سياستهم أن عملوا على القضاء على مملكة المناذرة التى كانت درعا لهم فتجرأت عليهم القبائل العربية ولاسيما قبيلة بكر بن

---

(١) على يد أول شيوعى عرفه العالم وهو مزدك الإباحى وكان من تعاليمه أن الله إنما جعل الأرزاق لتقسمها الناس بينهم بتآس ، ومن كان عنده فضل من النساء والأموال والأمتعة فليس هو بأولى به من غيره فافترص السفلة ذلك واغتنموه وكانفوا مزدك وشايعوه لإشباع شهواتهم الجامحة . فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم فكانوا يدخلون على الرجل داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأولاده لا يستطيع الامتناع منهم وقد أراد مزدك تطبيق مذهبه على زوجة كسرى قباذ الذى اعتنق هذا المذهب فأجابه كسرى إلى ما أراد لكن ابنها أنوشروان لم يستسغ أن تكون أمه مستفرشة لغير أبيه . فما زال بمزدك حتى عدل عن رغبته بعد أن انحنى على قدميه يقبلها وأسر أنوشروان ذلك فى نفسه وما كاد يسند إليه أمر العرش حتى عنى بالقضاء على هذا المذهب الذى أحدث بالبلاد هزة اجتماعية عنيفة ، فأهرق دم مزدك وقتل أكثر من مائة ألف من أتباعه . اهـ من مذكرة الخلفاء . للأستاذ أحمد مصباح .

وائل فإنها حاربتها وانتصرت عليها فى «وقعة «ذى قار» [1] بين سنتى ٦٠٤ ـ ٦١١ م .

وكم من مرة نزلاأبنـاء الملوك وذوو قرابتهم على الملك وأوقدوا نيران الحرب والفتن الداخلية وليس أدل على اضطرابهم السياسى من أنه فى السنوات الخمس التى سبقت الفتح الإسلامى .والمقارنةلأوائله (١٠ ـ ١٥ هـ) تعاقب على عرش فارس أكثر من عشرة ملوك مابين رجل وامرأة وصبي ومغتصب للملك . وكان ملوكهم منغمسين فى اللهو والترف مسرفين فى الملاذ والشهـوات وكانوا يسوقون الرعية إلى الحروب سوقا لاهوادة فيه .

كانت هذه الحروب الطاحنة وذلك البذخ البالغ مدعاة لاستنزاف دماء الشعب ولفرض الضرائب الفادحة وجمـــع الأموال فى قسوة وعنف ممـا أدى إلى أن شل اقتصاد البـلاد ودبت عوامل الفساد والانحلال فى الدولة التى كانت تنافس الرومان فى سيادة العالم .

الروم

بلغت دولة الروم البزنطية من القـوة والسلطان مالم تبلغه دولة أخرى فى زمانها ولـكن قد التاث أمرها أخـيراً: فالنزاع على الحكم

(١) هو أول نصر أحرزه العرب على العجم فزادت ثقتهم بأنفسهم حتى إذا أذن الله باضطلاعهم بدعوة الإسلام لم يهنوا ولم يترددوا .

كان شديداً ،وموارد الدولة الاقتصادية قد نضبت أو كادت، من جراء الحروب الخارجية والفتن الداخلية وبذخ الأباطرة، مما أدى إلى إثقال الشعب بالضرائب وجبايتها بالشدة والقسوة ، الأمر الذى أدى إلى تعطيل اقتصادها وسوء أحوالها .

غير أن الخلاف الدينى كان أشد تأثيراً من غيره، فقد كانت الدولة تدين أولا بالوثنية ثم دخلتها المسيحية فصب الأباطرة جام غضبهم على معتنقيها ولكن بمرور الزمن انتشرت المسيحية حتى صارت الدين الرسمى للدولة فى عهـــد قسطنطين الأكبر (٣٢٤ ـ ٣٣٧ م) فوقع كثير من المنازعات والمشاحنات بين أرباب الديانتين. وفى خلال هذه المنازعات انقسم المسيحيون على أنفسهم فى شأن عقيدتهم وصاروا فرقا: يعقوبية ونسطورية وملكانية واشتد الجدل بينهم وتعددت آراؤهم ومجامعهم وكان المذهب الرسمى للدولة هو الملكانية ، فكانت تعمل على نشره وأخذ الناس به كرها واضطهاد أرباب الفرق الأخرى ،وقد أدت هذه العوامل إلى أن يسود الناس القلق والاضطراب وعدم الاكتراث بأمور الدولة وأحوالها .

سؤال يرد للخاطر : يتساءل بعض النـاس عن الدافع لأبى بـكر لأن يدفع بالعرب إلى غزو الفرس والروم: أهو الرغبة فى نشر الدعوة

الإسلامية خارج الجزيرة العربية ؟ أم هو السياسة ؟ أم ماكانوا فيه من جدب وقحط بينما كانت الدولتان تنعمان بالخيرات ؟

وجواب هذا التساؤل سهل ميسور فإن الحق والواقع أن نشر الدعوة الإسلامية هو العامل الحقيقى فى تزجية الجيوش لغزو الفرس والروم وكل منصف يتتبع ماكان يقدمه قواد الجيوش الإسلامية بين أيديهم من الدعوة إلى الله قبل الالتحام بأعدائهم يدرك ذلك فى يسر. وحسبنا فى هذا المقام أن نذكر الكتاب الذى أرسله خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس والذى يقول فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد ابن الوليد إلى مرازبة فارس . أما بعد فأسلموا تسلموا ، وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر » .

وما كان يقوله رؤساء الوفود الإسلامية لكسرى يزدجرد ولقائده رستم وغيره ، ومن ذلك ماقاله النعمان بن مقرن ليزدجرد قبل موقعة القادسية : « ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين سنّ الحسن وقبح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء، فإن أبيتم فالمناجزة ، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم بلادكم » .

والقول بأن ذلك كان سياسة من أبى بكر ، إذ أنه أراد أن يشغل العرب عن ردة ثانية مع علمه بأن الحرب ترضى نزعة العربى الكامنة فيه ـ قول لا يثبت أمام التاريخ والنقد الصحيح، لأن الإسلام قد انتزع منهم الجاهلية الأولى والعصبية القبلية وجعلهم إخوة متحابين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فدواعى الحروب عند العرب فى جاهليتهم قد استلها الإسلام من نفوسهم. وعلى فرض بقاء أثر لهذه النزعة فهل كان الأمر يتطلب تزجية كل هذه الجيوش وإرسالها إلى كل من الفرس والروم؟ .

ثم ما بالنا نراهم بعد أن عرفوا الدنيا ونعيمها ونشأ منهم جيل وجيل وهم بعيدون عن صحرائهم وتقاليدهم الأولى لا يتوانون عن دعوتهم ومهمتهم التى ندبهم إليها دينهم .

والخوف من ردة ثانية احتمال بعيد . على أنه إن كان لا ستدعى الأمر وجـــود جيش مرابط فى حاضرة الدولة يكون على استعداد للضرب على يد من تسول له نفسه الرجوع عن الإسلام، ولكن ذلك لم يكن .

ولو كان الخوف من ردة ثانية هو الدافع لكانت أغلبية الجيوش على الأقل ممن يخشى منهم الردة ولكن الأمر كان بالعكس فإن الذين لم يرتدوا كانوا هم قوام كل الجيوش التى أرسلت لغزو الفرس والروم بل إن أبا بكر نفسه ما كان يسمح لقواده بالاستعانة بمرتد ،وفى ذلك

وحده اقناع لمن يريد أن يقتنع .

أما القول بأن الناحية الاقتصادية كانت هى الدافع فهو قول لايقام له وزن عند من يعرف الإسلام والمسلمين فى فجر الإسلام ويكفينا أن نقول : إن المسلمين قد ارتفعت حالتهم الاقتصادية وعلا مستواهم المعيشى حتى إن عمر قد فرض العطاء لكل مولود فى الإسلام حتى المنفوس (الطفل الحديث الولادة) مما اعتبره الباحثون الحادثة الأولى فى تاريخ العالم [1] .

فلو كان الدافع ضيق العيش لكانوا قد رضوا بما وصلوا إليه مما لم يصل إليه غيرهم وهم الذين طرقوا أبواب القسطنطينية فى زمن معاوية لفتحها وقد كان فى قبضتهم خير أجزاء المعمور من هذا العالم فهل ابتغوا من وراء ذلك عرض الدنيا ! !

ألم يوضح ذلك عمر فى رده على معاوية حينما استأذنه فى غزو الروم بحراً إذ قال : والله لمسلم واحد أحب إلى مما حوت الروم .

وقوله حينما أراد المسلمون فتح ما وراء السواد : حسبنا من الريف السواد وإنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال [2] فأرض الروم كلها بما حوت من خيرات لا تساوى مسلماً واحداً ، وسلامة المسلمين أفضل من أنفال فارس .

---

(١) راجع الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٧٨ ، الإدارة العربية للحسينى ص ١١٦ .

(٢) راجع الطبرى جـ ٣ ص ٣١٦ وما بعدها .

فليس الدافع إذن الخوف من ردة ثانية أو الناحية الاقتصادية ولكنها العقيدة التي ملكت عليهم السمع والبصر .

بدء الفتوح الإسلامية

في أواخر السنة الحادية عشر من الهجرة كان أغلب المرتدين قد راجعوا الإسلام وهدأت الحال فى معظم الجزيرة العربية فبدأ بعض الأبطال من المسلمين يغيرون على أطراف العراق من ناحيتي الحيرة والأبلة [1] فإذا طلبوا أمعنوا في الصحراء وأصبحت لهم بذلك جرأة وضراوة فى الإغارة على أطرف البلاد الخاضعة للفرس وكان فى مقدمة هؤلاء الأمراء الأبطال المثنى بن أبى حارثة الشيبانى .

أرسل المثنى إلى أبى بكر يعلمه ضراوته بفارس ويسأله أن يمده بجيش لغزوها وفى هذا الوقت الذى وصل فيه ذلك الكتاب لأبى بكر كان خالد قـــد فرغ من أمر بنى حنيفة ومقيما فى وادى الوبر فكانت الفرصة سانحة أمام الخليفة لندب فاقىء عين الردة ومنكس أعلام الفتنة لفتح السواد والبدء فى إزالة « إمبراطورية » الأكاسرة .

وفى المحرم من السنة الثانية عشرة أرسل إليه أبو بكر يأمره بغزو الفرس وأن يبدأ بثغر الأبلة بكتاب يقول فيه : « أن سر إلى العراق

---

(١) الأبلة بلدة على شاطىء دجلة فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة والحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة .

حتى تدخلها وإبدأ بفرج الهند وهى الأبلة وتألف أهل فارس ومن كان فى ملكهم من الأمم » . كما أمر عياض بن غنم أن يغزوها من الشمال وأن يبدأ بالمصيخ [1] وأمرهما أن يستنهضا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإســـلام وألا يستعينا بمرتد وأن يسيرا بمن يحب ولا يستكرها أحداً .فانفض عنهما كثير ممن كان معهما.

موقعة ذات السلاسل

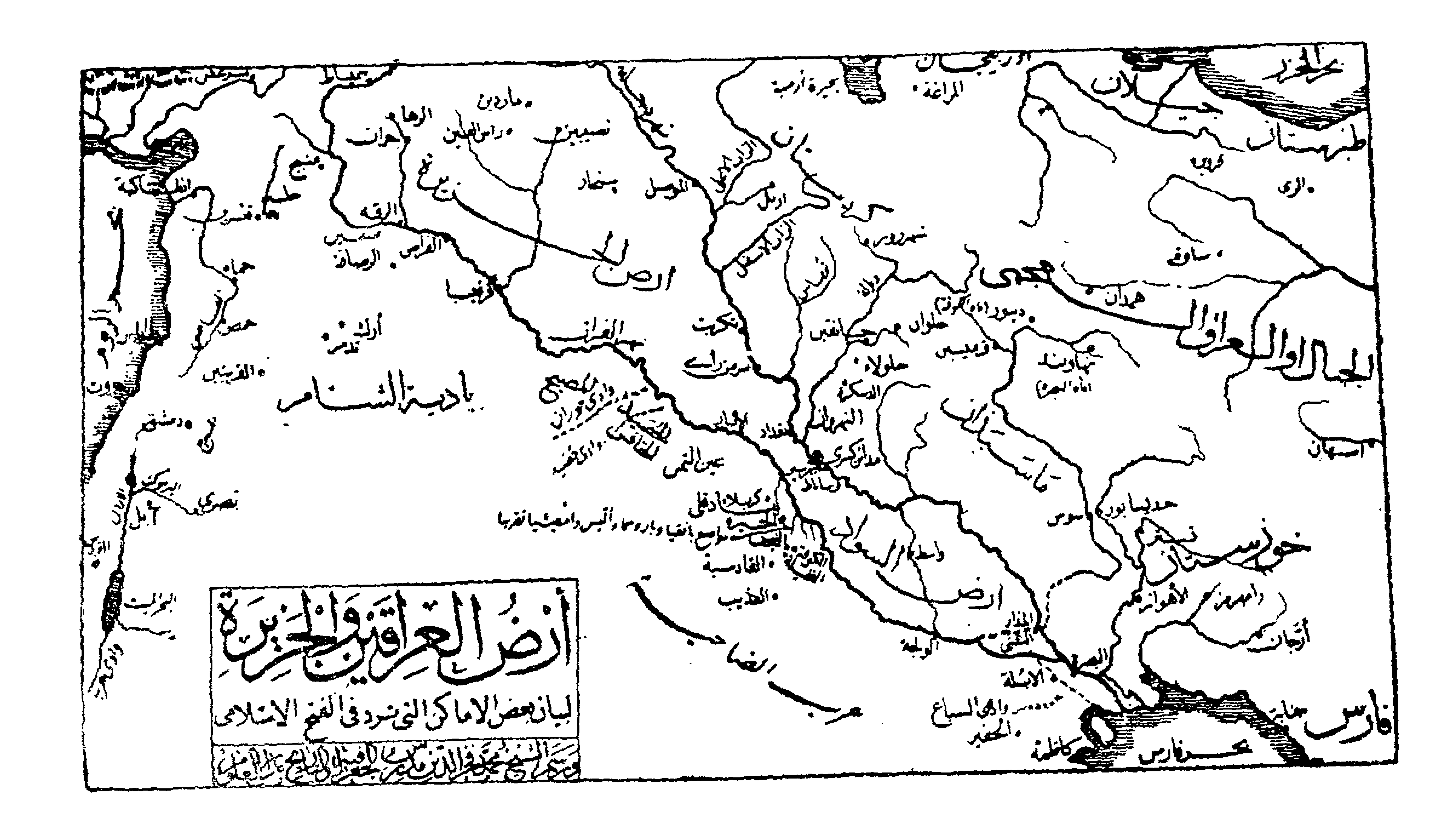
كتب خالد إلى المثنى وإلى غيره من الأمراء باللحاق به وأن يواعدوا جنودهم الأبلة ليوم قد سماه لهم وقبل أن يسير إلى العراق أرسل إلى هرمز ـ صاحب ثغر الأبلة ـ كتاب إنذار يقول فيه « أما بعد فاسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

استخلف خالد على اليمامة سمرة بن عمر العنبرى وسار فى جيش بلغت عدته بعد أن انضم إليه جند المثنى وغير ثمانية عشر ألفاً. ولما قارب العدو جعل الجيش ثلاث فرق وحملهم على أن تسلك كل فرقة طريقاً: فرقة مع المثنى وهى فى المقدمة وتلتها فرقة عليها عدى بن حاتم، وخرج خالد بعدهما وواعدهما الحفير [2] ليجتمعوا به ويلقوا عدوهم .

---

(١) المصيخ بين حوران والفلت .

(٢) الحفير ماء لباهلة بينه وبين البصرة أربعة أميال .


أرض العراقين والجزيرة
لبيان بعض الأماكن التي ترد في الفتح الإسلامي
بادية الشام
أرض الجزيرة
الجبال أو العراق العجمي
خوزستان
فارس
بحر فارس
بحر الخزر
طبرستان
جيلان
أذربيجان
بحيرة أرمية
المراغة
الري
ساوة
همذان
نهاوند
أصبهان
الأهواز
أرجان
كاظمة
الحفير
الأبلة
البصرة
واسط
الكوفة
الحيرة
القادسية
العذيب
عين التمر
الأنبار
بغداد
المدائن
سامرا
تكريت
الموصل
حلوان
نصيبين
ماردين
الرها
حران
الرقة
منبج
حلب
حماه
حمص
القريتين
تدمر
دمشق
بصرى
أيلة
الفرات
دجلة
الزاب الأعلى
الزاب الأسفل
أربل
شهرزور
رأس العين
الرصافة
قرقيسيا
النهروان
أنطاكية
قنسرين
عرب

سمع هرمز بمسير خالد فكتب إلى أزدشير ملك الفرس بالخبر ولما علم بأن المسلمين تواعدوا الحفير سبقهم إليه فعدل خالد عنها إلى كاظمة فسبقه هرمز إليها ونزل على الماء واختار الموقع الملائم لجيشه ونزل خالد على غير ماء فقال له أصحابه فى ذلك فقال : « حطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين » .

لاقى المسلمون أعداءهم ودعا هرمز خالداً للمبارزة واتفق مع أصحابه على الغدر به فبرز إليه خالد فاحتضنه وقتله وانهزم الفرس وركب المسلمون أكتافهم وجمع خالد الرثاث « الأمتعة » وفيها السلاسل التى كانوا قد اقترنوا بها لئلا يفروا فكانت وقر بعير (ألف رطل) فسميت الموقعة ذات السلاسل. وعامل خالد الفلاحين بالرفق واللين فحفظوا له ذلك وأرسل إلى أبى بكر بالفتح والخمس فنفله أبو بكر قلنسوة هرمز[1].

المــــذار

أجمع الفرس أمرهم وتجمعوا بالمذار بقيادة قارن بن قريانس فنهض إليهم خالد حتى التقى بهم وهــــو على تعبئة فاقتتلوا على حنق وحفيظة ودعا قارن للمبارزة فاستبق إليه خالد ومعقل بن الأعشى فسبقه

(١) كانت مفصصة بالجواهر وقيمتها مائة ألف وكانوا يجعلون قلانسهم على قدر احسابهم فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف .

معقل إليه فصرعه وانهزم الفرس وقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة قدرت بثلاثين ألفا ولولا أنهم عبروا إلى الجهة الشرقية للفرات وضموا السفن إليهم لأفناهم المسلمون عن آخرهم.

غنم المسلمون فى هذه الموقعة غنائم كثيرة حتى زاد منهم الفارس على ثلاثين ألفا وصار الفلاحون ذمة لهم وقسم خالد الأنفال ونفل أهل البلاء وتبحبح المسلمون وصارت كل واقعة أنكى على الفرس من التى قبلها وأسر فى هذه الواقعة يسار والد الحسن البصرى الإمام التابعى الكبير.

الولجة (١)

وصل نبأ النكبة فى المذار إلى أردشير فبعث الأندرزغر على رأس جيش كثيف وأردفه بجيش آخر عليه بهمن جاذويه وفصل الأندرزغر عن المدائن حتى أتى الولجة وانضم إلى صفوف الفرس كثير من نصارى العرب.

بلغ خالداً ـ وهو بالثنى ـ تجمع الفرس ونزولهم الولجة فأذن بالمسير إليهم على تعبئة بعد أن خلف سويد بن مقرن ليحمى ظهره. ولما شارف

(١) الولجة بأرض كسكر مما يلى البر.

الولجة جعل جيشه فرقا ثلاثا: تقدم هو بإحداها يلقى بها عدوه والثنتين جعلهما كمينين له فى ناحيتين .

التقى الجمعان فى صفر واقتتلوا قتالا شديداً حتى نفد الصبر واستبطأ خالد كمينيه وفيما هم على ذلك إذا بالكمينين يكتنفان الفرس من ناحيتين فانهزموا وولوا الأدبار ومضى الأندرزغر فى هزيمته حتى مات عطشا . وأصيب فى هذه الموقعة كثير من العرب المتنصرة من بكر بن وائل فغضب لهم نصارى قومهم وكاتبوا الفرس وواطئوهم على حرب المسلمين فكان ذلك سبباً فى موقعة أليس .

أليس (١)

انضم نصارى العرب إلى الأعاجم وقائد الجميع بهمن جاذوية ولكنه آثر أن ينيب عنه جابان ليذهب إلى الملك ليطلعه على جالية الأمر فنهد خالد إلى المجتمعين بأليس وهو على تعبئة وقد أعدوا طعامهم فأظهروا عدم الاكتراث بخالد ولكنه أجهضهم عن طعامهم واقتتلوا قتالا شديداً وحرب المسلمون عليهم فكشفوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة قدرت بسبعين ألفا وأمعن خالد فى قتلهم حتى اختلط دمهم بالنهر براً

---

(١) أليس فى أول أرض العراق من ناحية البادية من الشمال من المذار من أرض كسكر .

بيمينه التى كان قد حلفها وخلفهم المسلمون على طعامهم ونفلهموه خالدٌ اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر وبعث إلى أبى بكر بالفتح والأخماس .

أمغيشيا

نهض خالد حتى أتى أمغيشيا فوجد أهلها قد جلوا عنها وأعجلوا عمافيها فأمر بهدمها وهدم كل شيء كان فى حيزها وأصاب المسلمون فيها مالم يصيبوا مثله منذ موقعة ذات السلاسل فقد بلغ سهم الفارس ١٥٠٠ درهم سوى أنفال أهل البلاء .

ولما وصلت الأخمـــاس والفتح لأبى بكر وبلغه ماصنع خالد والمسلمون قال فى خالد قولته الخالدة « يا معشر المسلمين عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله (قطع اللحم الوافرة المختارة) أعجزت النساء أن يلدن مثل خالد ؟ » وكان الاستيلاء على أمغيشيا توطئة لفتح الحيرة .

الحـــيرة (١)

بلغ الازاذبة مرزبان(٢) الحيرة ما كان من خالد فى أمغيشيا وأليس فعلم أنه غير متروك فاستعد للحرب وقدم ابنه أمامه وأمره بسد الفرات وتفجير الأنهار التى تأخذ منه .

(١) الحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة .

(٢) المرزبان بضم الميم والزاى هو الفارس الشجاع المقدم على القوم وهو معرب ومعناه حافظ الثغور .

خرج خالد من أمغيشيا وحمـــل الرجل فى السفن مع الأنفال والأثقال فلم يفجأه إلا السفن جوانح فارتاع لذلك وسأل عن السبب فقال له الملاحون: أن الفرس قد فجروا الأنهار وسدوا الفرات فسلك المـاء غير طريقه فتعجل خالد فى جريدة من الخيل نحو ابن الأزاذبة وسبق الأخبار ولقيه وجنده على فم فرات بادقلى فأوقع بهم وفجر الفرات وسد الأنهار فسلك الماء سبيله. ثم سار حتى نزل بين الخورنق والنجف، فهرب الأزاذبة من غير قتال لمـا دهمه من قتل ابنه وموت أزدشير .ثم تقدم خالد حتى نزل بين الخـــورنق مشرفاً على الحيرة وحاصرها وكان أهلها قد تحصنوا بالقصور والقلاع وبعد مناوشات وقتال رأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب مع المسلمين فمالوا إلى الصلح وأول من طلبـه منهم عمرو بن عبـد المسيح ثم تبعه بقية الرؤساء وأهدوا له الهدايا فصالحهم خالد على الشروط الآتية :

١ ـ أن يؤدوا جزية مقدارها ١٩٠ ألف درهم .

٢ ـ أن يلوا إدارة شئون مدينتهم بأنفسهم .

٣ ـ أن يتولى المسلمون الدفاع عنهم .

وهذه أول معاهدة أجنبية للمسلمين . وبعث خالد بالفتح والهدايا لأبى بكر فقبلها على أن تكون من الجزاء. وكتب إلى خالد أن احسب

لهم هديتهم من الجزاء. واتخذ خالد الحيرة قاعدة لأعماله الحربية فى العراق فكانت بذلك أول عاصمة للمسلمين خارج جزيرتهم .

ولما صالح أهل الحيرة خالداً جاءه صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف فصالحه على بانقيا وباروسما وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطىء الفرات واعتقد لنفسه وقومه على عشرة آلاف سوى خرزة كسرى.

ولما رأى دهاقين البلاد أن الأمر قد استقام بين خالد وأهل الحيرة أتوه فصالحوه على ما بين الفلاليج إلى هرمزجرد ، على ألفى ألف درهم إلا ما كان لآل كسرى ومن لف لفهم وأبى الدخول فى الصلح .

غلب خالد الفرس على خير شق السواد وجعل الحيرة مقرا لقيادته ومعقلا لجيوش المسلمين ،وآن له أن ينظر فيما فتحه نظر تنظيم وتدبير ويرتب أمور البلاد التى فتحها ليوهن عزم الفرس ويقضى على أملهم فى استعادة شىء مما فقدوه،فبعث مسالحه وعماله لجباية الخراج وحماية الثغور .[1]

خطبة حكيمة حازمة : أراد خالد أن يتقدم إلى الفرس وأن يعذرهم من نفسه بعد ماصدمهم مراراً وعرفوا حدته ويمن نقيبته لعل منهم من

(١) راجع ذلك فى الطبرى ج ٤ ص ١٨ .

يثوب إلى رشده فيعطى بيده فيأمن ويأمن قومه، كما أراد أن يمر عيشهم ويوهن عزائمهم فبعث إليهم بكتابين أشـــد من الصواعق وأمر على نفوسهم من كل مالا تقوه منه : أحدهما للخاصة والآخر للعامة وقال لمرة الحيرى حين بعثه لملوك فارس : اذهب إليهم فلعل الله أن يمر عيشهم أو يسلموا أو ينيبوا. وهذا نص كتابهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم » « من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس أما بعد فالحمد لله الذى حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم فادخلوا فى أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

وقال لهزقيل حين وجهه إلى المرازبة اللهم أزهق روحهم . وهذا نص كتابهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم » « من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس أما بعد فأسلموا تسلموا وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر » .

وفى هذا الوقت الذى سيطر فيه المسلمون على مادون دجلة كان أهل فارس بموت أزدشير مختلفين بشأن من يلى الملك فيهم، ولم يكن لهم

هم إلا المدافعة عن بهر سير (وهى إحدى المدائن التى سميت بها مدائن كسرى) فلما أن جاءتهم كتب خالد أحبوا أن يفرغوا من تنازعهم وأن يجمعوا على رجل يختارونه فولوا عليهم الفرخزاذ بن البندوان (ولم يكن من بيت الملك) إلى أن يجدوا من آل كسرى من يجتمعون عليه .

ولما استقام لخالد أمره واطمأن على الثغور استخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو سار لإغاثة عياض بن غنم الذى بعثه أبو بكر لفتح العراق من أعلاه فسلك الفلوجة حتى نزل بكربلاء فأقام بها أياماً ثم نادى بالرحيل حتى انتهى إلى الأنبار .

الأنبار

لما وصل خالد إلى الأنبار على مقدمة جيشه وكان أهلها قد تحصنوا وخندقوا على أنفسهم طاف بالخندق وتوآ أنشب القتال وقال لرماته : « إنى أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم ولا توخوا غيرها » فأصابوا فيها ألف عين ثم عمد إلى الإبل العجاف فى جيشه فنحرها ورمى بها فى أضيق مكان فى الخندق فأفعمه ثم اقتحمه على جسر من تلك الرذايا (الضعاف) فطاب قائدهم الصلح على أن يخليه ويلحقه بمأمنه فى جريدة خيل ليس معهم من الأموال والمتاع شىء فأجابه خالد إلى طلبه وجاء من حولها فصالحوه ثم قصد إلى عين التمر .

عين التمر [1]

كان فى عين التمر مهران بن مهرام جوبين فى جمع عظيم من الفرس، وعقة بن أبى عقة فى جمع عظيم من النمر وتغلب وإياد ومن لف لفهم وحين سمعوا بمسير خالد إليهم قال عقة لمهران : « إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالداً قال : صدقت .لعمرى أنتم أعلم بقتـــال العرب وإنكم لمثلنا فى قتال العجم »نخدعه وورطه واتقى به واعتصم هو بحصنه .

نزل عقة لخالد على الطريق وقدم خالد على تعبئة لحمل على عقة وهو يسوى صفوفه فاحتضنه وأسره وانهزم جنده وأمعن المسلمون فى أسرهم ولما علم مهران بالهزيمة هرب فى جنده من غير قتال والتجأت فلول جنـــد عقة إلى الحصن فاستنزلهم خالد بلا أمان وقتلهم جميعا وغنم المسلمون كل ما فى الحصن ووجد خالد فى بيعتهم أربعين غلاما يتعلمون الإنجيل.فقال ما أنتم ؟ قالوا: رهن ، فقسمهم فى أهل البلاد: منهم نصير أبو موسى بن نصير وسيرين أبو محمد بن سيرين وحمران مولى عثمان رضى الله عنه ، وغيرهم ممن أعقب رجالا كان لهم شأن فى دولة الإسلام.

---

(١) عين التمر بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة على طرف البرية .

دومة الجندل

أحرز خالد هذه الانتصارات العظيمة وعياض بن غنم لايزال يحاصر دومة الجندل فكتب إلى خالد يستمده فكتب إليه خالد أخصر كتاب عرف : « من خالد إلى عياض إياك أريد » .

سار خالد إلى دومة وقد تجمعت بها جموع كثيرة من نصارى العرب ولما بلغهم دنو خالد منهم دب الرعب إليهم وقال لهم أحد رؤسائهم أكيدر بن عبد الملك : « أنا أعلم الناس بخالد لا أحد أيمن طائراً منه ولا أحد في حرب ولا يرى وجه خالد قوم أبداً ، قلو أو كثروا إلا انهزموا أطيعونى وصالحوا القوم » فأبوا عليه فقال : لن أمالئكم على خالد فشأنكم فخرج لطيته فبعث إليه خالد من جاء به فضرب عنقه جزاء غدره ونقضه العهد .

سار خالد حتى نزل بدومة وعليها الجودى بن ربيعة ورؤساء القبائل التى جاءت لنجدتهم فجعلها بين عسكره وعسكر عياض فكانت الهزيمة على أهل دومة ولم ينج من القتل منهم إلا بنى كاب وكانوا حلفاء تميم فأجارهم عاصم بن عمرو التميمى .

الحصيد والخنافس

أقام خالد فى دومة قليلا ثم عاد إلى الحيرة ، لأن إقامته أطمعت الأعاجم فى استرداد ما فقدوه وإعادة الكرة على المسلمين ، وكذلك

ظنها عرب الجزيرة فرصة للثأر لمن قتل منهم فى عين التمر، فأرسل خالد سريتين إلى الحصيد والخنافس (بالقرب من الأنبار) فأوقعتا بمن تجمع فيهما من العجم والعرب .

المصيخ

انتهى خبر الحصيد والخنافس إلى خالد فواعد قواده ليلة يجتمعون فيها إلى المصيخ فتوافروا فى موعدهم فبيتوا المجتمعين هنـاك وأناموهم وامتلأ بهم الفضاء كأنهم غنم مصرعة .

الثنى والزميل

سار خالد إلى الثنى والزميل ورتب الهجوم عليهما من نواحٍ ثلاث كما فعل بالمصيخ وشكل بمن اجتمع فيهما فلم يفلت ممن اجتمع بالثنى مخبر وقتل من اجتمع بالزميل مقتلة لم يقتلوا قبلها مثلها .

الفراض

قصد خالد الفراض (وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة) ليحمى ظهره ويأمن من أن تكون وراءه عورة واجتمعت على المسلمين هناك جيوش الروم والفرس والعرب. وعبرت الفرات إليهم واقتتلوا قتالا شديداً طويلا وحقت الهزيمة على جيوش المؤتلفين وقتل المسلمون منهم نحواً من مائة ألف. وكانت هذه الموقعة آخر حروب خالد بالعراق.

حج خالد

اقام خالد على الفرات عشرة أيام ثم أذن بالرحيل إلى الحيرة لخمس بقين من ذى القعدة من السنة الثانية عشرة وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجيش وأظهر أنه سائر فى الساقة ، ولكنه مضى إلى الحج فى عدة من خاصته يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت فتأتى له من ذلك مالم يتأت لدليل ولا ريبال فكانت غيبته عن الجند قصيرة ، فما توافى إلى الحيرة آخرهم حتى وافاهم مع صاحب الساقة فقدما معاً ، ولم يعلم الجند بحجه حتى رأوه وأصحابه محلقين رءوسهم ومقصرين .

ماذا بعد الحج

علم أبو بكر بحجة خالد وتركه للجيش وهو الخبير بأثر ذلك فى جنده وجند أعدائه فأكبر ذلك واعتده إعجابا منه بنفسه وبما أتيح له من انتصار واستهانة لشأن عدوه فأرسل إليه كتاباً قاربه فيه وباعده وهنأه بحجة وعاتبه فى ذلك الوقت أرسل أمراء المسلمين الذين وجهوا لفتح الشام إلى أبى بكر يستمدونه فرأى ان يصيب غرضين بحجر فيعاقب خالداً ويظهر عتبه عليه فى صورة محسة ويرسل مدداً ونجدة للمسلمين ويرمى الروم بالأسد الذى رمى به فارس فينسيهم وساوس الشيطان ويزلزل عرشهم به كما قوض به عرش الأكاسرة فكتب إليه : « أن سر

حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا وإياك أن تعود لمثل ما صنعت فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك، فليهنأك أبا سليمان النية والحظوة فأتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتذل وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن وهو ولى الجزاء » وقد ساء ذلك خالداً ونسبه إلى عمر بن الخطاب ولكن لم يسعه إلا أن يسارع بالسفر إلى الشام ويبادر بامتثال أمر الخليفة .

أقام خالد فى العراق سنة وشهرين من المحرم سنة اثنتى عشرة إلى صفر من السنة الثالثة عشرة كان له فيها من الوقائع زهاء خمس عشرة موقعة وفى جميعها يصادمه عدوه بأضعاف جيشه ومع ذلك فقد كان فى كل هذه المواقع التى صدم فيها جيوش الفرس والروم والعرب المتنصرة القائد المظفر لم تسقط له راية ولم ينثن سيفه عن ضريبته وفعل فى سنته هذه ما لم يفعله أكبر قائد فى مثل جنده حتى لقد كان اسمه يسبقه إلى كل موقعة أرادها ، وكانت انتصاراته الرائعة فتحاً ولم تكن غزوا فكان يترك فى كل بلد يفتحه حامية لئلا يؤتى من خلفه ويقيم فيه أميراً يلى أموره وآخر يجبى خراجه وكانت شدته وحدة سيفه على المقاتلين يقابلها رحمة وعدل ومنعة للملاحين حتى عرفوا له ذلك ؛ فكانوا له ، وآثروا حكمه على حكم الفرس الذين استذلوهم واستعبدوهم .

ويظهر لنا عظيم ما قام به خالد فى سنته من فتوح ما قاله ابن الهيثم البكائى عن أبيه : «كان أهل الأيام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذى يبلغهم ويقولون : ما شاء معاوية؟ نحن أصحاب ذات السلاسل - وهى أولى وقائع خالد فى العراق - ويسمون ما بينها وبين الفراض ما يذكرون ما كان بعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل[1]».

فتح الشام

كان البدء فى فتح الشام متأخراً عن الفتح فى العراق ففى أواخر السنة الثانية عشرة اهتم أبو بكر بالشام واعتزم الجد فى أمر الروم فعقد الألوية الأربعة من كبار قواده وهم :

(١) يزيد بن أبى سفيان . (٣) أبو عبيدة بن الجراح .
(٢) شرحبيل بن حسنة . (٤) عمرو بن العاص .

وعين لكل قائد منهم الطريق التى يسلكها والجهة التى يغزوها ويليها بعد الفتح ، فجعل ليزيد[2] دمشق ، ولشرحبيل الأردن ، ولأبى عبيدة حمص ، ولعمرو بن العاص فلسطين .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٧ ، ٤٠ .

(٢) وهم على هذا الترتيب فى خروجهم للشام فكان يزيد أول الأمراء خروجا وهؤلاء القواد قرشيون ماعدا شرحبيل بن حسنة فإنه كندى أو أزدى وحسنة أمه - راجع الطبرى ج ٤ ص ٣٩ .

سار الأمراء حتى وصلوا الشام. ولما علم الروم بنزولهم كاتبوا «هرقل» وكان بالقدس فخرج عنها إلى حمص وعلم بتفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد فأراد أن يشغل كل قائد عن غيره من بقية القواد وأن يضعفه عمن يكون بإزائه فأرسل إلى كل قائد أضعاف مامعه من الجند لكثرة جنده، وفضول رجاله. ولما علم قواد المسلمين بذلك رأوا التريث حزما ففزعوا بالكتب وبالرسل إلى عمرو وإلى أبى بكر أن ماالرأى؟ فأجابهم عمرو: بأن الرأى لمثلنا الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا أجتمع لن يغلب من قلة. وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا، وأعد لنا لكل طائفة منا، فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا به ووافاهم كتاب أبى بكر بمثل مشورة عمرو بأن اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً. ولم يؤت مثلكم من قلة، واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه.

بلغ هرقل ذلك وعرف أن جيش المسلمين فيه حدهم وجدهم. وأن المعركة التى ستدور بينهما معركة فاصلة، فكتب إلى قواده أن اجتمعوا لهم وانزلوا بالروم منزلا واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب فنزلوا الواقوصة [1] وهى على ضفة اليرموك وصار الوادى خندقا لهم

---

(١) الواقوصة: واد بالشام فى أرض حوران نزله المسلمون أيام أبى بكر على اليرموك لغزو الروم. واليرموك واد بناحية الشام فى طريق الغور فى نهر الأردن ثم يمضى الى البحيرة المنتنة ـ معجم البلدان.

وهو لهب لا يدرك وأراد قواد الروم أن يستفيق عسكرهم ويأنسوا بالمسلمين وترجع إليهم أفئدتهم عن طيرتها حين يرون قلة المسلمين وكثرة جموع قومهم .

ولما نزلوا منزلهم هذا انتقل المسلمون عن معسكرهم فنزلوا عليهم بحذائهم على طريقهم وليس لهم طريق إلا عليهم فقال عمرو : « أيها الناس أبشروا حصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير » فأقاموا بإزائهم وعلى منفذهم صفر وشهرى ربيع لا يقدرون من الروم على شيء ولا يخلصون إليهم ، الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم وكلما خرجوا خرجة نال المسلمون منهم .

كان المسلمون حينما رأوا جموع الروم الكثيفة استمدوا أبا بكر وأعلموه الشأن فقال : حين بلغه ذلك : « خالد لها »

والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » فكتب إليه واستحثه فى السير لإغاثة المسلمين بالشام وأن يخلف على العراق المثنى بن حارثة فى نصف الجيش ويسير هو فى النصف الثانى فإذا فتح الله على المسلمين بالشام رجع إلى عمله بالعراق فانجذب بمن استخلص من جند العراق وسار حثيثاً حتى وجى فرســـه وصادف قدومه على المسلمين وصول مدد كبير للروم فاستبشر المسلمون بخالد وفرح الروم بمددهم . وكانت جنود الروم عظيمة متكاثفة بلغت أربعين ومائتى

ألف على ما رواه الطبرى بينما جنـــود المسلمين كانت حوالى ستة وثلاثين ألفاً .

قدم خالد فوجد أمراء المسلمين يقاتلون الروم على تساند فعسكر هو أيضا على حدة وصلى بجنده ونازلوا الروم ونالوا منهم وألجؤهم إلى خنادقهم فلزموها عامة شهر ثم حربوا المسلمـــين وخرجوا للصدمة الكبرى فى تعبئة لم ير الراوون مثلها قط وأحس المسلمون بخروجهم فخردوا وأرادوا الخروج متســـاندين فلم يرق ذلك فى نظر خالد ، إذ كيف يقاتلون قوما مجتمعين على رأى وفى نظام وتعبئة وهم على تساند ، لأن فى ذلك من الوهن واختلاف الرأى وتجزىء قوة المسلمين مايطيل أمد القتال ولا ينيلهم من عدوهم فالتفت إلى قواد المسلمين وقال لهم : هل لكم يامعشر الرؤساء فى أمر يعزالله به الدين ولا يدخل عليكم معه ولا منه نقيصة ولا مكروه ؟ فقالوا نعم ، فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له مابعده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة على تساند وانتشار ، فإن ذلك لايحل ولا ينبغى ،وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته. «قالوا : هات ،فما الرأى ؟ » قال : إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا

سنتياسر ولو علم بالذى كان ويكون لقد جمعكم. إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما غشيهم وأنفع للمشركين من إمدادهم ولقد علمت أن الدنيا قد فرقت بينكم ،فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لاينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجند ولا يزيده عليه إن دانوا له إن تأمير بعضكم لاينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلنتعاور الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غداً ، والآخر بعد غد ، حتى يتآمر كلكم ، ودعونى إليكم اليوم ، فأمروه وهم يرون أنها كخرجاتهم ، وأن الأمر أطول مما صاروا إليه [1] .

عبى خالد الجيش تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك فجعله نحواً من أربعين كردوسا وقال : إن عدوكم قد كثر وطغى وليس من التعبئة تعبئة أكثر فى رأى العين من الكراديس وجعل على كل كردوس رجلا يأتمر بأمر من فوقه وجعل له طليعة وقاضيا وقارئا ليقرأ عليهم سورة الجهاد « الأنفال » كما كان يفعل النبى صلى الله عليه وسلم من بعد بدر عند لقاء العدو وصاحب أقباض (ميرة) وواعظاً كان يسير فى الجيش

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٢ .

ويقف على الكراديس فيقول : « الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك. اللهم إن هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك » أمر خالد مجنّبتى القلب أن ينشبا القتال وكان عليهما القعقاع بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل فخرجا فى حماس وأنشبا القتال والقعقاع يرتجز :

ياليتنى ألقاك فى الطراد :

قبل اعترام الجحفل الوراد وأنت فى حلبتك الوراد

وعكرمة يجيبه بقوله :

قد علمت بهنكة الجوارى أنى على مكرومة أحامى

وكانت هذه الأراجيز تقوم لهم مقام الموسيقى فى تحميس الجند وتشجيعهم .

التحم الفريقان، وتطارد الفرسان، وخرست الألسن، وصمت الآذان إلا عن قعقعة السيوف وزئير الفرسان. ثم أمر خالد بالزحف ونهد بالقلب حتى كان بين خيل الروم ورجالهم وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق المهرب فلما وجدت خيلهم مذهباً ذهبت تشتد بهم فى الصحراء وأفرج لها المسلمون ولم يحرجوها فذهبت وتفرقت فى البلاد وأقبل خالد والمسلمون على الرجل فقوضهم فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا

فى خندقهم فاقتحمه عليهم فعمدوا إلى الواقوصة فهوى فيها كثير منهم بلغوا مائة وعشرين ألفاً سوى من قتل فى المعركة وقد استمر القتال النهار كله ومعظم الليل ولم يطلع الصبح إلا وخالد فى رواق رئيس الجند وأصابوا كل مافى عسكرهم وبلغ سهم الفارس ألفاً وخمسمائة درهم.

وأرسل أبو عبيدة الذى تولى القيادة العامة إلى عمر يبشره بالفتح وكانت هذه الموقعة أول فتح أتاه بعد وفاة أبى بكر بعشرين ليلة [1].

كان للكثير من شجعان المسلمين وفرسانهم أثر واضح فى الإقدام والصبر والثبات فهذا الزبير بن العوام كان أفضل من شهدها فقد اخترق صفوف الروم مرتين. وهذا عكرمة كان يقول : قاتلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل موطن وأفر اليوم؟! ثم ينادى من يبايع على الموت؟! فبايعه أهل النجدة والغناء من وجوه المسلمين وقاتلوا جميعاً قدام فسطاط خالد وهو فى وسط القلب حتى أثبتوا جميعاً جراحاً وقتلوا إلا من برأ منهم.

وكما كان لأهل الغناء مواقف مشهودة فى هذا اليوم كان أيضاً للنساء نصيب غير منزور فكن يقمن بسقى الماء وخرز السقاء ومداواة الجرحى واستنهاض الهمم واستثارة الحماس فى قلوب الرجال بل قاتلن

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٦٣ السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٦٣ .

فى بعض الجولات فقد قتلت خطيبة النساء أسماء بنت يزيد الأشهلية تسعاً بعمود خبائها [١] .

انهى خبر الهزيمة إلى هرقل وهو دون حمص فارتحل عنها وجعلها بينه وبين المسلمين وودع سوريا فقال : « سلام عليك ياسوريا سلاما لا لقاء بعده » .

استشهد فى هـذه الموقعة من المسلمين نحو من ثلاثة آلاف بينهم كثير من أهل النجدة والغناء وأصحاب رسول الله وقد شهد اليرموك منهم ألف بينهم نحو مائة ممن شهد بدراً .

وممن استشهد الحارث بن هشام وعكرمة بن أبى جهل وعياض بن ربيعة . فلما أثبتوا دعا الحارث بماء ليشربه فنظر إليه عكرمة فقال ادفعه إلى عكرمة فلما أخذه عكرمة نظر إليه عياض فقال ادفعه إليه فما وصل إلى عياض حتى مات ولا وصل إلى واحد منهم حتى ماتوا .

وفى أثناء الموقعة جاء البريد بوفاة أبى بكر وتولية عمر وعزل خالد عن الإمارة وتولية أبى عبيدة . فأخذ خالد كتاب عمر ووضعه فى كنانته ولم يذعه فى الناس لئلا تهن قوتهم ، حتى إذا ماأنتهت الموقعة سلم الكتاب لأبى عبيدة وسلم عليه بالإمارة وكانت هذه الموقعة من الوقائع الفاصلة

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٦ .

فى تاريخ الشرق بين المسلمين والروم فقد تقلص سلطان القياصرة عن رقعة فسيحة وظهر سلطان الإسلام وتتابعت بعدها فتوح المسلمين فى بلاد بنى الأصفر .

وقفـــة تدبر: لابد لنا من وقفة تدبر بعد هذه المعركة الفاصلة التى جمع فيها كل من المسلمين والروم كل ما استطاعوا وذلك أن جيش المسلمين كانت عدته نحوا من أربعين ألفاً ينتصر نصراً مؤزراً على جيش فيه ما يزيد على خمسة أمثاله مزود بالعدد مدرب على الحروب حديث العهد بالانتصار على جيوش الفرس. إن ذلك لشيء يلفت النظر حقاً والأمر إذن لا يرجع إلى كثرة العدد والعدد ، وإنما يرجع هذا الانتصار كما فى غيره من المواقع التى خاضها المسلمون إلى أسباب غير معروفه ولا مألوفة من قبل ومن أهمها :

١ ـ أن المسلمين يقاتلون راجين إحدى الحسنيين : إما الشهادة والسعادة فى الآخرة ، وإما الفوز والنصر فى الدنيا .

٢ ـ الثقة بنصر الله وتأييده فهم يقاتلون وهم مطمئنون إلى النصر وهذا مدد وقوة لا يعادلها كثرة العدو .

٣ ـ القيادة الماهرة البصيرة بالحروب المتطلعة إلى الاستشهاد وأنى ذلك لقواد الفرس والروم ؟! فقد رأيناهم فى أكثر من موقعة يتركون

ميدان المعركة ويهربون طلباً للسلام وحباً فى الحياة يدل على ذلك ما كان يبعث به خالد إليهم من مثل قوله: قد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

وبانتهاء هذه الموقعة تنتهى الأعمال الجليلة والفتوح العظيمة التى تمت فى عهد أبى بكر وكان قطبها خالد بن الوليد. رحم الله خالداً! فقد كان العلم فى تاريخ أبى بكر رضى الله عنه .

جمع القرآن

كان القرآن ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم منجما فيحفظه ويبلغه للناس ويأمر كتاب الوحى بكتابته ويدلهم على موضع المكتوب من سورته فيكتبونه فى العسب واللخاف والرقاع وقطع الأديم وعظام الاكتاف والأضلاع ، ويوضع المكتوب فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن ينسخ الكتاب لأنفسهم منه صورة . وانقضى عهده عليه الصلاة والسلام ولم يجمع القرآن كله فى مصحف واحد [1]

وكان من الصحابة من يحفظ القرآن كله فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كابن مسعود ، وأبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل وزيد

---

(١) هداية القرآن للمرحوم الشيخ حسين سامى .

ابن ثابت وكثير غيرهم من أجلهم أبو بكر رضى الله عنه. كما كان منهم من يحفظ بعضه .

قبض رسول الله عليه الصلاة والسلام والقرآن مكتوب كله ومحفوظ فى الصدور. ولما ولى الخلافة أبو بكر وارتد كثير من العرب ونشبت الحرب بين المسلمين والمرتدين قتل كثير من قراء الصحابة فى موقعة اليمامة فهال ذلك عمر بن الخطاب فكلم أبا بكر فى ذلك وبين له مايخشاه من ضياع القرآن إذا استحر القتل فى القراء واقترح عليه جمع القرآن. فتردد أبو بكر أولا وبعد حوار مع عمر اقتنع بصواب رأيه وتجلى له وجه المصلحة فى ذلك ، فأرسل إلى زيد بن ثابت ، وهو من حفاظ القرآن وكتاب الوحى وشهد العرضة الأخيرة للقرآن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان مع ذلك عاقلا ورعا مأمونا غير متهم فى دينه ، فلما جاءه عرض عليه أن يقوم بجمع القرآن فتردد وناقش أبا بكر وعمر فى ذلك ومازال به أبو بكر حتى اقتنع وشرح الله صدره لمثل ما شرح الله له صدر أبى بكر وعمر فشرع فى جمع القرآن فكان يجمعه من العسب[1] واللخاف وغيرهما ويتحرى أن يكون جمعه مما كتب

---

(١) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل كانوا يكشطون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض، واللخاف جمع لخفة . بفتح اللام وسكون الخاء وهى الحجارة الرقاق ، والرقاع جمع رقعة وقد تكون من جلد أو ورق أوكاغد وقطع الأديم : قطع الجلد .

بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتوثق فى الأخذ بالمكتوب غاية التوثق فلم يكن يقبل شيئاً من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدى رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وفى ذلك يقول البخارى رحمه الله « حدثنا موسى بن إسماعيل عن إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن عبيد بن السباق أن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : أرسل إلىّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضى الله عنه إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استحر (اشتد وكثر) يوم اليمامة بقــــرّاء القرآن وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قلت لعمر : كيف تفعل مالم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هذا والله خير .فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر ، قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لانتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله عليه الصلاة والسلام فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن،قلت كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال :هو والله خير .فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب

واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم » حتى خاتمة براءة. فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنه (١) .

ثم جمع القرآن على هـذا النحو من صدور الحفاظ ومما كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإشراف أبى بكر وعمر وكان جمعه فى عهد الصديق من أجل مناقبه وأفضل مزاياه قال على كرم الله وجهه : «أعظم الناس فى المصاحف أجراً أبو بكر ! رحمة الله على أبى بكر ! هو أول من جمع كتاب الله » .

إدارة البلاد

قسم أبو بكر جزيرة العرب إلى ولايات جعل على كل منها أميراً له إقامة الصلاة والفصل فى القضاء وإقامة الحدود فكان الوالى فى زمنه أميراً وقاضياً ومنفذاً . أما البلاد التى فتحت فى زمنه من العراق والشام فكانت الحرب لا تزال قائمة فيها ولذا كان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيها.

ولم يكن له وزير ، وإنما كان عمر يلى القضاء وأبو عبيدة أمينا لبيت المال . وظل بعد خلافته يشتغل بتجارته ستة أشهر ثم تركها ؛ ليتفرغ لمصالح المسلمين واستنفق من بيت المال ما يصلحه ويصلح عياله .

---

(١) راجع فضائل القرآن للحافظ ابن كثير ففيه فصل بيان .

وفاته

حُمَّ رضى الله عنه لسبع خلون من جمادى الآخرة ، فصلى بالناس نيابة عنه عمر بن الخطاب . وتوفى فى مساء الحادى والعشرين من جمادى الآخرة، ودفن فى حجرة عائشة بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وألصقوا لحده بلحد النبي صلى الله عليه وسلم وجعلوا رأسه عند كتفيه عليه الصلاة والسلام يميل قليلا إلى الجهة الشرقية .

وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام . وهذه المدة القصيرة الحافلة بجلائل الأعمال والفتوحات العظيمة تظهر لنا ما عرف عنه رضى الله عنه من قوة الإرادة ومضاء العزيمة والحرص الشديد على الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم واقتفاء آثاره .

وهكذا تطوى صحيفة أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وثانى اثنين إذ هما فى الغار . رحم الله أبا بكر ، وجزاه عن الإسلام أحسن الجزاء .

٭ ٭ ٭

عمر بن الخطاب

رضى الله عنه

١٣ — ٢٣ هـ ٦٣٤ - ٦٤٤ م

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

١٣ — ٢٣هـ ٦٣٤ — ٦٤٤م

ترجمته :

هو عمر بن الخطاب بن نفيل العدوى من بنى عدى بن كعب يلتقى نسبه مع النبى صلى الله عليه وسلم فى كعب بن لؤى .

وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة يلتقى نسبها بالنبى صلى الله عليه وسلم فى مرة بن كعب وكان فى صغره يرعى على أبيه غنمه ولما كبر اشتغل بالتجارة وما زال يشتغل بها حتى ولى الخلافة .

ولد رضى الله عنه لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونشأ فى بيت من بيوت السيادة فى قريش وآلت إليه قبـل الإسلام السفارة وهى شارة الشرف التى كانت لبنى عدى فى الجاهلية ، وكان رحمه الله شجاعا جريئاً قوى الشكيمة شديداً فى الحق لا تأخذه فيه لومة لائم ، تشهد بذلك سيرته قبل الإسلام وبعده. ولم يكن بدء ظهور الإسلام مقتنعاً بصحته! فحاربه وحاده وصد عنه حتى كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة ورأى منهم شدة تمسكهم بدينهم واحتمالهم كل أذى فى سبيله ، فرق لهؤلاء المهاجرين الفارين بدينهم منه ومن أمثاله، وفكر فى هذا الدين الذى ملك على أتباعه السمع والبصر وجعلهم يفارقون أوطانهم من أجله ويضحون بديارهم وأموالهم فى سبيله . ثم

أراد الله له الخير فآمن وذهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى دار الأرقم ابن أبى الأرقم وأعلن إسلامه فأعز الله به الإسلام استجابة لدعوة رسوله صلى الله عليه وسلم « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام » وبإسلامه جهر المسلمون بعبادتهم واستطاعوا أن يدخلوا المسجد الحرام آمنين ولقبه الرسول صلوات الله عليه من أجل ذلك بالفاروق لأن الله قد فرق بإسلامه بين عهدين : عهد الإسرار بالدعوة ، وعهد الجهر بها .

وعند ما أراد الهجرة إلى المدينة لم يخرج خفية متسللا كما كان يفعل غيره خيفة أن يحبسهم أهلوهم، ولكنه تقلد سيفه وتنكب قوسه ومضى نحو الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعاً ثم أتى المقام فصلى متمكناً ثم وقف على حلق قريش واحدة واحدة وهو يقول « شاهت الوجوه ! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس ! من أراد أن تثكله أمه فليلقنى وراء هذا الوادى ! » فلم يتبعه أحد .

وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهده كلها لم يتخلف عن واحدة منها . وكان هو وأبو بكر بمنزلة الوزيرين له صلى الله عليه وسلم وكان رضى الله عنه من الملهمين ، وكثيراً ما كان يشير على النبى برأى فينزل القرآن موافقاً لما أشار به . وقد أصهر إليه النبى صلى الله عليه وسلم فتزوج ابنته حفصة بعد أن قتل عنها زوجها بأحد .

ولما لحق النبى صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى كان له الفضل فى الإسراع ببيعة أبى بكر فقضى على الاختلاف وتفرق الكلمة ،وكان له بعد بيعته بمنزلة الوزير والساعد الأيمن يستشيره فى عظائم الأمور ويحيل عليه الفصل فى القضايا والخصومات . وإليه يرجع الفضل فى جمع القرآن فى زمن أبى بكر رضى الله عنه .

انتخابه للخلافة :

لما مرض أبو بكر واشتد عليه المرض خاف أن ينتثر عقدهم بتنازعهم على الخلافة وقد رأى ما كان منهم عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من انقسام ،وأن كل فرقة تريد الأمر لها وأن كثيرين كانوا يرون أنهم أهل للاضطلاع بها فدعاه - حرصه على مصلحة المسلمين واجتماع كلمتهم - أن يتخير لهم رجلا رضى منهم يجتمعون عليه ويحفظ عليهم ألفتهم،ولم يشغله ماهو فيه من شدة المرض عن مصلحتهم .ولو ترك الخلافة من غير عهد ولا تعيين لتنافس المتطلعون إليها، ولشغل المسلمون بها وتركوا منازلة أعدائهم من الفرس والروم ، ولكانت فتنتهم بها أنكى عليهم من فتنة الردة ، ولعاود العرب ردتهم جذعة فيتسع الفتق على الراتق ولكان تاريخ المسلمين على غير ماهو عليه اليوم .

أجال أبو بكر نظره فيمن حوله يتخير منهم رجلا رضى منهم ،شديداً فى غير عنف جديراً بحمل أعباء ذلك المنصب الخطير فى تلك الأيام

الحاسمة فى تاريخ الإسلام ، فوجد الكثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على مايحب ، غير أنه رأى أن عمر أمثلهم إلى مايود للمسلمين ، ولكنه أحب أن يستوثق للأمر فاستشار كبار الصحابة وأهل السابقة ليطمئن على حسن اختياره ، وحتى لا يكون فى نفس واحد منهم حفيظة على من يختاره . فدعا عبد الرحمن بن عوف فقال : أخبرنى عن عمر ، فقال له : ماتسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى ، فقال : وإن ! فقال عبد الرحمن هو أفضل من رأيك فيه من رجل ، ولكن فيه غلظة، فقال أبو بكر ذلك لأنه يرانى رقيقاً ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو فيه ، ويا أبا محمد قد رمقته فرأيتنى إذا غضبت على رجل فى شىء أرانى الرضا عنه ، وإذا لنت له أرانى الشدة عليه ، لاتذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئاً قال : نعم .

ثم دعا عثمان بن عفان فقال : يا أبا عبد الله أخبرنى عن عمر ، قال : أنت أخبر به ، فقال : على ذلك يا أبا عبد الله ، فقال : اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته ، وأنه ليس فينا مثله ، فقال أبو بكر : رحمك الله يا أبا عبد الله ، لاتذكر مما ذكرت لك شيئاً ، قال : أفعل ! فقال له أبو بكر : لو تركته ماعدوتك ، وما أدرى لعله تاركه والخيرة له ألا يلى من أموركم شيئاً . ولوددت أنى كنت خلواً من أموركم وأنى كنت فيمن مضى من سلفكم . وسأل أسيد بن حضير فقال : اللهم أعلمه الخير بعدك

يرضى للرضا ويسخط للسخط ، الذى يسر خير من الذى يعلن ، ولن يلى هذا الأمر أقوى عليه منه. واستشار سعيد بن زيد وغيره من المهاجرين والأنصار فكلهم أثنى وقال خيراً .

ولما استبان لأبى بكر ما أحب دعا عثمان بن عفان فأملى عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد به أبى بكر بن أبى قحافة إلى المسلمين . أما بعد : ثم أغمى عليه فكتب عثمان : فإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، ولم آلكم خيراً . ثم أفاق أبو بكر فقال : اقرأ على فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال : أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلت فى عشيتى . قال : نعم ، قال جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله ، وأقرها أبو بكر من هذا الموضع .

ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عيسى ممسكته ، فقال لهم : أترضون بمن أستخلف عليكم ، فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى ، ولا وليت ذا قرابة وإنى قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا ، فقالوا : سمعنا وأطعنا . وفى رواية فقام على فقال : لا نرضى إلا أن يكون عمر ، فقال أبو بكر : فإنه عمر [1] .

ثم اختلى بعمر وأوصاه بتقوى الله ومراقبته فى السر والعلن ولما

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى .

خرج من عنده رفع يديه وقال : اللهم إنى لم أزد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ماأرشدهم ، وقد حضرنى من أمرك ماحضر فاخلفنى فيهم فإنهم عبادك ونواصيهم فى يدك وأصلح لهم واليهم واجعله من خلفائك الراشدين يتبع هدى نبى الرحمة ، وأصلح له رعيته .

وقد بايع المسلمون عمر البيعة العامة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم . وبذلك تكون البيعة لعمر تمت بعهد من أبى بكر وترشيح ورضاً من أهل السابقة وكبار الصحابة ثم من عامة المسلمين [١] .

ويعتبر اختيار أبى بكر لعمر آخر الأعمال الكبرى التى قام الصديق للإسلام والمسلمين .

وكان بدء خلافته يوم الثلاثاء ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ .

أول خطبة لعمر

بعد أن بويع بالخلافة صعد المنبر فخطب المسلمين خطبة قصيرة ولكنها تنبىء عن سياسته التى اعتزم أن يسوس بها المسلمين ، فقال بعد

(١) وهذه البيعة بهذه الصفة تدحض زعم المغرضين الذين يقولون أن البيعة لعمر كانت نتيجة اتفاق ومؤامرات بين أبى بكر وعمر وأبى عبيدة .

أن حمد الله وأثنى عليه : « إنما مثل العرب كمثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق » .

(والجمل الأنف (ككتف) أو الآنف (كصاحب) هو الجمل الذلول المواتي ، الذي يأنف من الزجر والضرب ويعطى ما عنده من السير عفواً سهلا . وهذا تشخيص حسن للأمة الإسلامية لعهده ، فإنها كانت سامعة مطيعة إذا أمرت أئتمرت وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسئولية الكبرى على قائدها بأنه يجب عليه أن يتبصر حتى لا يوجه هذه الأمة إلى ما فيه خطر عليها ، بل يتخير لها أساس الطرق وأسهلها ولذلك وعدهم مقسما فقال : « أما أنا فورب الكعبة لأحملكم على الطريق » ويفهم بالبداهة أنه الطريق الأقوم الذى لا اعوجاج فيه [1]

كان أبو بكر رضى الله عنه يدعى خليفة رسول الله . فلما ولى عمر قيل له : خليفة رسول الله ، فقال المسلمون : من جاء بعد عمر قيل له : خليفة خليفة خليفة رسول الله فيطول هذا ، ولكن اجتمعوا على اسم تدعون به الخليفة يدعى من بعده من الخلفاء فقال بعضهم: نحن المؤمنون وعمر أميرنا فدعى عمر أمير المؤمنين فهو أول من سمى بذلك وقيل فى تسميته أمير المؤمنين غير ذلك . [1]

---

(١) محاضرات المرحوم الشيخ الخضرى .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ١٩ ، سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٤٩ ، الطبرى ج ٣ ص ٣٧٧ تاريخ الخلفاء اسيوطي ص ٩٤ .

الفتوح فى عهد عمر

كانت سياسة عمر الخارجية امتداداً لسياسة أبى بكر فقد سلك نفس الطريق التى اتبعها أبو بكر من قبل ، وهى المضى فى حرب الفرس والروم . وقد وفق عمر فى فتوحه توفيقاً عظيما ، فقد قضى على دولة الأكاسرة وانتزع من قياصرة الروم أنفس الأقاليم التى كانت خاضعة لهم فى آسيا وأفريقية .

الفتوح فى فارس :

كان أبو بكر قد أمر خالد بن الوليد حينما وجهه للشام أن يستخلف على جند العراق المثنى بن حارثة الشيبانى ويترك معه نصف الجنود فرأى المثنى قلة جنده وتوقع أن يجمع له الفرس جموعا لا قبل له بها فخف إلى المدينة ليطلع أبا بكر على حقيقة الحال، وليستأذنه فى الاستعانة بمن صدقت توبته ممن كان قد ارتد ، فوجده فى مرضه الأخير .

ولما علم أبو بكر بما جاء من أجله المثنى ، استدعى عمر وأوصاه أن يجد فى إرسال النجدة لجند العراق وقال له فيما قال: « إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا ، فإذا أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصيت ربكم وقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب

الخلق بمثله، وأن فتح الله على أمراء الشام فأردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وجنده، وأهل الضراوة بهم والجرأة عليهم» ومات أبو بكر من يومه، فندب عمر الناس مع المثنى وأمّر على هؤلاء المنتدبين أسبقهم إجابة «أبا عبيد بن مسعود الثقفى وأوصاه بقوله: اسمع من أصحاب رسول الله وأشركهم فى الأمر، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين فإنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكفّ».

النمارق (١)

عجل المثنى إلى عسكره وسار أبو عبيد فى أثره بخمسة آلاف مقاتل سوى من استنفرهم فى طريقه إلى أن وصل الحيرة، وكان الفرس فى ذلك الوقت قد ولوا عليهم آزر ميدخت إحدى أميرات البيت الساسانى وأسندت القيادة العامة للجنود إلى رستم، فكان أول ما قام به أن طلب من أمراء السواد أن يثوروا فى وجه المسلمين، فأجابوا، ظنا منهم أن النصر سيكون للفرس، وجيشوا جيشاً كبيراً وعسكروا فى «النمارق» فضم المثنى إليه مسالحه وحذره وعندما أقبل أبو عبيد سار إلى النمارق

---

(١) النمارق موضع قريب من الكوفة من أرض العراق.

والتحم بالفرس وهزمهم وتعقبهم إلى كسكر [1] حيث أوقع بهم وجاءه دهاقين السواد مذعنين .

أزعجت أنباء الهزيمة رستم فجهز جيشاً عظيما بقيادة بهمن جاذويه تظله الراية الكبرى لفارس وتسمى (درفش كابيان) وفيه عدد من الفيلة فسار هذا الجيش حتى نزل « قس النّاطف » وسار أبو عبيد حتى نزل المروحة فى مواجهة الفرس على الضفة الغربية للفرات،فبعث إليه بهمن إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم ، فأشار عليه ذووا الرأى من المسلمين بعدم العبور ، ولكنه لج وقال : لا يكون الفرس أجرأ منا على الموت، وعبر بالمسلمين ودارت رحى الحرب بشدة وكادت كفة المسلمين ترجح لولا أن خيولهم نفرت من الفيلة فترجل أبو عبيد هو وفرسانه فألقاه فيل منها على الأرض ووطئه فاختل أمر المسلمين وركبهم الفرس فتقهقروا ، فبادر عبد الله بن مرثد الثقفى إلى الجسر فقطعه ليثبت المسلمون فى مواقفهم ، غير أن ذلك لم يزدهم إلا اضطراباً فانتهى الناس إلى الجسر والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا فى الفرات وأصيب منهم نحو من أربعة آلاف بين قتيل وغريق ، ولولا أن ثبت المثنى فى جماعة من أهل النجدة يحمون ظهور

(١) كسكر : كورة واسعة كانت قصبتها خسر وسابور ثم صارت قصبتها واسط بعد أن مصرها الحجاج .

المسلمين حتى عقدوا الجسر وعبروا إلى المروحة لهلك المسلمون عن آخرهم .

وكان المثنى من آخر من عبر ، على رغم ما أصيب به من جراح . وهذه الموقعة الوحيدة التى انهزم فيها المسلمون أمام الفرس . وترجع هزيمتهم إلى :

١ ـ استبداد أبى عبيد برأيه ، ومخالفته لوصية عمر أن يسمع من أهل الرأى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ قطع الجسر وهو الطريق الوحيد للنجاة ، ولولا هذا الخطأ الحربى لعبر المسلمون ، ولما غرق منهم من غرق ولأمكنهم أن يعيدوا تنظيم صفوفهم ، وكانت خسارتهم غير فادحة .

البويب (١)

لم يبق مع المثنى بعد موقعة الجسر سوى ثلاثة آلاف رجل ، وهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ولا الاحتفاظ بما فى أيديهم ، ولما علم عمر بذلك بعث إليه بالامداد ، فطالب المثنى أن توافيه هذه الأمداد على البويب ووجه إليهم رستم جيشاً كبيراً بقيادة مهران ، وأرسل هذا

(١) بلفظ تصغير الباب : نهر بالعراق . الكامل لابن الأثير .

القائد إلى المثنى يخيّره بين أن يعبر بجنده أو يعبر هو إليه ، فقد كان يريد تجديد مأساة الجسر ، ولكن هذه المأساة كان أثرها لا يزال ماثلا أمام المسلمين، فأبى المثنى العبور واستعد للقتال. وعبأ جيشه تعبئة خالدية وعبر الفرس والتحموا مع المسلمين فى قتال مرير قاتل فيه المثنى قتالا مشهوداً ، على ما به من جراح . وأمر الجيش بالإفطار فقد كانت هذه الموقعة من أشد ما لاقاه المسلمون هولا ، لتفوق عدوهم فى العدد والعدة ، ولكنهم صبروا وصابروا فحقت الهزيمة على الفرس بعد أن كاد يفنى قلب جيشهم ، فاستبقوا إلى الجسر فسبقهم إليه المثنى وقطعه ، وأنزل بهم ما أنزلوه بالمسلمين فى موقعة الجسر السابقة حتى قدر عدد قتلاهم بمائة ألف ، وتفرقوا فى الريف مصعدين ومنحدرين وجنود المثنى تتعقبهم إلى أن وصلوا إلى « السيب [1] » .

وكانت هذه الموقعة من المواقع الكبرى فقد ألقت الرعب فى نفوس الفرس بعد أن أطمعهم فى المسلمين موقعة الجسر السابقة . وتبحبح المسلمون بعدها فيما بين دجلة والفرات ، لا يمنعهم مانع ولا يقف فى سبيلهم أحد .

ومع أن المسلمين قد انتصروا انتصاراً مؤزراً ، فإن المثنى قد أخطأ

---

(١) السيب كورة من سواد الكوفة

بقطعه الجسر إذ لا ينبغى إحراج من يقوى على الامتناع . وقد اعترف المثنى بخطئه وحذر جنده من مثل هذا الخطأ .

رحم الله المثنى فقد أبلى فى جهاده بلاء حسناً واستشهد فى سبيل الله .

القادسية [1]

أفزع الفرس وأزعجهم انتصار العرب عليهم فى « البويب » واتساع نفوذهم فى السواد ، ورأوا أن ماهم فيه من اختلاف هو الذى أضعفهم وثبطهم عن عدوهم ، فقالوا لرستم والفيرزان ـ وهما على أهل فارس ـ أين يذهب بكما ؟ لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم ، وإنه لم يبلغ من خطركما أن تقركما فارس على هذا الرأى ، وأن تعرضاها للهلكة ، مابعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن ، والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل ان يشمت بنا شامت ، ثم نهلك وقد اشتفينا منكم [2] فوضعوا حداً لخلافهم واجتمعوا على يزدجرد (وهو آخر ملوك الدولة الساسانية) واطمأنوا إليه .

وتبارى المرازبة فى طاعته ومعونته . وكان شاباً فى سن الحادية

---

(١) القادسية موضع على جادة الكوفة يبعد عنها بمقدار ثلاثة عشر فرسخا وهى على باب فارس ولأنها على جادة البادية فهى تضمن للمسلمين الا يؤتوا من الخلف .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٦٥٨ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٣٠٨ .

والعشرين متحمساً طموحا، فأجمع أمره على طرد العرب من العراق. وردهم على أعقابهم وأعد العدة لذلك، فسعى الجنود لكل مسلحة وثغر وجمع جموعا هائلة بلغت مائة وعشرين ألف مقاتل عدا الأتباع بقيادة رستم أعظم قوادهم .

كتب المثنى بأنباء ذلك إلى عمر بن الخطاب ولم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد : من كان له عهد ومن لم يكن له عهد . فتراجع المثنى إلى حدود البادية ونزل بذى قار [1] .

ولما وصل كتاب المثنى إلى عمر رأى أن يضرب جموع الفرس بجموع العرب ، فأعلن التعبئة العامة ولم يدع رئيساً ولا ذا رأى ولا ذا شرف ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به ، فرماهم بوجوه الناس وغررهم ، وأرسل إلى أبى عبيدة بن الجراح يأمره بصرف جند خالد ابن الوليد إلى العراق ، وعزم هو على أن يقود بنفسه جيوش المسلمين فخرج من المدينة وعسكر على ماء يدعى « صرار » [2] وأفلح ذوو الرأى فى أن يصرفوه عن عزمه على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاستقر الرأى على تولية القائد العظيم سعد بن أبى وقاص قيادة الجيش .

---

(١) ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط .

(٢) موضع على ثلاثة أميال من المدينة من طريق العراق

سار سعد إلى العراق على رأس جيش بلغت عـــدته زهاء ثلاثين ألفاً [١] ، بعد أن انضم إليه جند المثنى الذى توفى من جراحة أصابته يوم الجسر فانتقضت به ، غير أنه لم ينس أن يقدم النصح للمسلمين فأرسل مع أخيه المعنى إلى سعد بوصية هى عصارة تجاربه وخبرته فى حروبه مع الفرس يقول له فيها : قاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدرة من أرض العجم ، فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم وإن تكن الأخرى فاءوا إلى فئة ثم يكونوا أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة عليهم [٢] .

رابط سعد فى سهل القادسية والجيش الفارسى حياله فى الجانب الشرقى من الفرات وبعث ـ كما أمره عمر ـ رجالا من أهل المناظرة والرأى إلى يزدجرد فأذن لهم بعد أن جمع وجوه دولته حوله وقال لهم : ما جـــاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا ؟ أمن أجل أنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ فرد عليه بعض رجال الوفد مبينا تاريخ الدعوة الإسلامية وأهدافها وأن دينهم الذى ارتضوه لأنفسهم قد ألقى عليهم مهمة إخراج الناس من الظلمات إلى النور فاختر لنفسك : الإسلام

---

(١) كان فى هذا الجيش ٧٠ بدريا ، ٣٠٠ من شهد فتح مكة .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٨٩ ـ ابن الأثير ج ٢ ص ٣١٢ .

أو الجزية أو السيف ، فاستشاط يزدجرد غضباً ! وقال : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندى . ثم قال ائتونى بوقر من تراب ، فقال احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن وهددهم بإرسال رستم إليهم ليدفنهم فى القادسية .

ثم ترددت الرسل بين سعد ورستم طمعا فى الصلح ، ولكنهم لم يفلحوا ، ومع ذلك فقد استفاد المسلمون كثيراً ، إذ اطلعوا على عورات الفرس ، وعرفوا مواطن الضعف عندهم .

وكان للحوار الذى دار بين رستم ورسل المسلمين صدى بعيد الأثر بين طبقات الفرس ، فقد أشعر العامة منهم بما هم فيه من شقاء ومهانة .

ظل الجيشان متواقفين مدة طويلة حتى نفد صبر يزدجرد ، فأمر رستم أن يبدأ القتال ، فعبر الفرات والتحم مع المسلمين فى قتال مرير وأخافت فيلة الفرس خيول المسلمين فتفرقت عن الرجالة واشتد الأمر على بجيلة حين فرت عنها جيادها فأعانهم سعد ببنى أسد فصمدوا لها وكان لهم ولرئيسهم طليحة الأسدى فى ذلك أعظم فخار فقد كانوا رداءً للناس ولم يكن للمسلمين من حيـــلة فى الفيلة إلا أن رمت بنو تميم ركبانها بالنبل وقطعت وضنها فسقطت الصناديق عن ظهورها فلم يبق من ركبانها راكب إلا قتل . ولما أعريت عن ركبانها عادت إلى مواقفها

فنفس ذلك عن بنى أسد بعد ما قتل منهم خمسمائة مقاتل و استمر القتال حتى ذهبت هدأة من الليل .

ويعرف هذا اليوم بيوم أرماث[1] وكانت كفة الفرس فيه أظهر .

وفى صبيحة الغد وكل سعد بالقتلى من يدفنهم وبالجرحى من يقوم بتمريضهم من النساء . ثم أقبلت جنود خالد من الشام فقوى بهم المسلمون وصدقوا الحملة على الفرس ولم تظهر الفيلة فى ذلك اليوم ؛ لأن صناديقها لم يتم إصلاحها حتى أمسى المساء وقد ابتكر المسلمون أمراً نالوا به من الفرس ، فقد جللوا الإبل وبرقعوها حتى صار لها منظر غريب وطافت بها خيولهم تحميها فلقيت خيول الفرس منها ما لقيته خيول المسلمين من الفيلة فى اليوم الأول واستمر القتال إلى منتصف الليل . وكان الظفر أوضح فى صفوف المسلمين ، فقد قتلوا من الفرس عشرة آلاف فى مقابل ألفين من المسلمين قتلهم الفرس . ويعرف ذلك اليوم بيوم أغواث[2] .

وفى اليوم الثالث اصطدم الجيشان على حنق وعادت الفيلة تفعل

---

(١) الرمث بالتحريك خشب يضم بعضه إلى بعض ويركب فى البحر . ورمثه أمرهم كفرح اختلط فلعلهم شبهوا الصناديق التى على الفيلة بالخشب الذى يضم بعضه إلى بعض ويركب عليه أو لأن أمرهم اختلط .

(٢) لمجىء الغوث اليوم بالجند الذين جاءوا من الشام .

فعلها فى خيل المسلمين فصوبوا رماحهم لأكبر فيلين فأصيب أحدهما ورمى الثانى فوثب فى العقيق ، فتبعته الفيلة وخرقت صفوف الفرس وعبرت العقيق فى إثره فمال ميزان القتال إلى جانب المسلمين وأقبل الليل والقتال على أشده ولم يكن يسمع فى تلك الليلة إلا صليل السيوف وهدير الفرسان وقاتل الفريقان قتالا لم يقاتلوا مثله قط حتى أصبحوا فسار القعقاع بن عمرو فى الناس يقول لهم : إن الدائرة بعد ساعة فاصبروا واحملوا ، فإن النصر مع الصبر . فما قام قائم الظهيرة حتى هزم المسلمون مجنبتى الفرس واشتدت وطأته على القلب وقصد رجال من ذوى النجدة سرادق رستم فأراد الهرب فتبعه هلال بن علفة وقتله ونادى : قتلت رستم ورب الكعبة فكبر المسلمون وتنادوا . ولم يكن لقلب الفرس بعد مقتلة ثبات ، وتتابعت هزيمتهم .

ويعرف اليوم الثالث بيوم عماس [1] وتعرف ليلته بليلة الهرير (الصوت) ولم يلتحم المسلمون فى قتال أشد هولا منها لا مع الفرس ولا مع غيرهم ، وقتـــل من الفرس نحو من ثلاثين ألفاً ، وقتل من المسلمين نحو من ثمانية آلاف .

ومن طريف ما يذكر أن عمر رضى الله عنه كان مشغولا جداً بأمر

---

(١) العماس كسحاب الحرب الشديدة .

القادسية . فكان لا ينفك يخرج فى كل يوم يتنسم أخبارها ، فإذا ما انتصف النهار رجع إلى أهله. وفى ذات يوم لقيه البشير فسأله عمر : من أين ؟ فأخبره ، فاستخبره عمر ، فقال وهو يسير على ناقته : هزم الله العدو وهو يجرى وراءه ويستزيده والرجل لا يعرفه حتى دخل المدينة وسلم عليه الناس بإمرة المؤمنين فقال الرجل: فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين وعمر يقول له : لا عليك يا أخى هات ما عندك فسلمه كتاباً من سعد بالنصر وبما أفاء الله على المسلمين .

١ ـ وكانت هذه الواقعة من المواقع الفاصلة بين الفرس والمسلمين فقد وجه لها الفرس كل ما استطاعت أمة أن توجهه من جنود وعتاد ووضعت فى جيشها هذا كل آمالها .

٢ ـ ولم تستطع الفرس بعدها مواجهة المسلمين بمثل ما كانوا عليه فيها من عدد وقوة، فقد انهارت روحهم المعنوية وتحطمت قوتهم المادية.

٣ ـ تمكن العرب من استرجاع الحيرة وما والاها من المدن ثم الاستيلاء على المدائن عاصمة الفرس .

٤ ـ اعتناق كثير من عرب العراق وأكارية الإسلام وانخراطهم فى سلك المجاهدين .

٥ ـ امتلاء أيدى العرب بالأسلاب والغنائم العظيمة

فتح المدائن

أقام سعد بالقادسية شهرين ليستجم الجند ولينتظر أمر الخليفة ثم ارتحل فاستولى على بابل بلا كبير عناء بعد أن مزق الفلول التى تجمعت من الجيش الفارسى واستقر الأمر للمسلمين فيما بين دجلة والفرات وظل سعد مقيما بالجزيرة حتى جاءه أمر الخليفة بالسير إلى المدائن (١) عاصمة الفرس فسار حتى وصل بهرسير (مدائن الدنيا) فحاصرها ثم فتحها بعد أن تركها الفرس وعبروا إلى المدائن العليا ، وفى أثناء حصاره لبهرسير راسله الدهاقين راضين بأن يدفعوا الجزية على أن يمنعهم المسلمون فقبل منهم سعد وصالحهم . وشاهد المسلمون وهم فى المدائن الدنيا إيوان كسرى فتذكروا الأثر القائل : عصبة من المسلمين يفتحون البيت الأبيض بيت كسرى ، فقويت قلوبهم وارتفعت روحهم المعنوية.

كان الفرس قد قطعوا الجسر بعد أن عبروا الفرات ، ليعوقوا زحف المسلمين على عاصمتهم ، فدلهم أهل البلاد الحانقين على ملوكهم ،

---

(١) المدائن عبارة عن مدينتين متقابلتين إحداهما على الشاطىء الغربى لدجلة وهى المدائن الدنيا أو بهرسير وقد بناها السلوقيون خلفاء الإسكندر المقدونى وكان يسكنها طبقة العامة من الفرس والثانية على الشاطىء الشرقى لدجلة وهى المدائن العليا وقد بناها ملوك الفرس وبها إيوان كسرى (القصر الأبيض) .

على مخاضة فأسرع المسلمون فى العبور ووهن الفرس لذلك ولم يستطيعوا الدفاع عن مدينتهم فتركوها وقد أعجلوا عن نقل ما فيها من كنوز ونفائس، وهرب يزدجرد بعياله إلى حلوان .

نزل سعد بالقصر الأبيض وهو يتلو قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين » واتخذه مسجداً بعد أن ظل قروناً معبداً لعبادة النار وأقام به أول جمعة فى صفر سنة ١٦ ﻫ وهى أول جمعة جمعت بالعراق .

جمع سعد ما تركه الفرس وما فى خزائن كسرى من أموال وذخائر وكان شيئاً كثيراً ، فأصاب الفارس اثنا عشر ألف درهم – وكان كل الجند فرساناً – مما غنموه من القادسية . ثم قسم دور المدائن بين الناس فأوطنوها ، ثم جمع الخمس وأدخل فيه الكثير من نفائس كسرى وحليه مما يعجب العرب أن يروه ، ومن ذلك بساط ستون ذراعاً فى مثلها فيه من الصور والمناظر ما يأخذ بالألباب .

جلولاء

انتهى الفرس فى هزيمتهم إلى جلولاء، وكانت – مفترق طرقهم – فتذامروا وقالوا : إن افترقنا لم نجتمع فهلموا فلنجتمع للعرب ولنقاتلهم : فإن كان

الظفر لنا فذاك مانحب ، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا الذى علينا وأبلينا عذراً ، فحصنوا المدينة واحتفروا خندقاً حولها أحاطوه بالحسك إلا طرقهم ، وكان يزدجرد مقيما فى حلوان ويمدهم بالرجال والأموال ، فاستأمر سعد عمر ، فأمره أن يسرح إليهم هاشم بن عتبة فى اثنى عشر ألفاً ، فسار عتبة حتى نزل بجلولاء وحاصرها نحواً من ثمانين يوماً ، ولما طال الأمر بالمسلمين هاجموها من ثغرة فى تحصينات الفرس كانوا أعدوها لدخولهم وخروجهم ، وصادفوا فى ذلك حرباً هائلة كانوا يشبهونها بليلة الهرير ، وكان بطلها القعقاع بن عمرو . وبعد قتال عنيف ولى الفرس الأدبار هرباً يمنة ويسرة تاركين المدينة للمسلمين وتبع القعقاع المنهزمين حتى وصل خانقين . ولما علم يزدجرد بالهزيمة ترك حلوان إلى الرى فسار القعقاع إلى حلوان واحتلها وأقام مرابطاً بها ، وكانت هى الثغر الذى يفصل بين السواد والجبل ، وكان من رأى عمر ألا يجاوزها المسلمون إلى ماوراءها ، حتى لايتورطوا فى بلاد لايعلمون مسالكها ، وقبل أن تثبت أقدامهم فى البلاد التى فتحوها ، وقال فى كتاب له : « لوددت أنّ بين السواد والجبل سداً لايخلصون إلينا ولا نخلص إليهم ، حسبنا من الريف السواد، وإنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال » .

تكريت

بلغ سعداً تجمع الفرس بتكريت ومعهم كثير من العرب فأرسل إليهم عبد الله بن المعتم فى خمسة آلاف رجل ، فخندق الفرس حول تكريت فحصرهم ابن المعتم أربعين يوماً ، وفى أثناء ذلك استمال العرب المنضمين إلى الفرس إلى جانبه واتفق معهم أن يكبروا إذا سمعوا تكبير المسلمين ، ثم أمر بالهجوم والتكبير ، فهجموا وكبروا ،فكبر العرب الذين مع الفرس بتكبيرهم فظن الفرس أن المسلمين جاءوهم من خلفهم فاستبقوا إلى الأبواب فأخذتهم سيوف المسلمين من بين أيديهم ومن خلفهم .

ثم سار ابن المعتم إلى نينوى ففتحها ثم إلى الموصل ، فاستولى عليها ، وأرسل سعد فصيلة ثانية بقيادة ضرار بن الخطاب إلى ماسبذان فافتتحها عنوة وأمن أهلها ،

كما سارت فصيلة ثالثة بقيادة عمر بن مالك لفتح قرقيسيا ففتحها عنوة وأقر أهلها عليها .

وبذلك صار سواد العراق كله فى أيدى المسلمين .

تمصير البصرة والكوفة

بعد أن فتح الله على المسلمين مافتح من العراق كانت رسلهم ترد على عمر فيرى فى وجوههم وألوانهم تغيراً ، فسألهم عن سر ذلك فقالوا له : وخومة البلاد ، فاستنبأ سعداً فأنبأه بأن « العرب خددهم ، وكفأ ألوانهم وخومة المدائن ودجلة » فأرسل إليه أن ابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا موضعاً برياً بحرياً ليس بينكم وبينى فيه بحر ولا جسر ، فسارا مرتادين حتى أتيا موضع الكوفة فأعجبتهما البقعة فنزلا فصليا ودعوا الله أن يبارك لهم فى هذه الكوفة ، فلما بلغ ذلك عمر، أمر سعداً أن يسير بالجنود إليها ، فارتحل بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة فى المحرّم سنة ١٧ هـ وأقام المسلمون فى خيامهم ، ثم أذن لهم عمر أن يتخذوا بيوتاً من قصب ، ولما أصابها الحريق أذن لهم فى اتخاذ بيوت من اللبن ، وبدءوا ببناء مسجدها وبنوا بحياله دار الإمارة وجعلت مناهجها الكبرى أربعين ذراعا .

أما البصرة فإن الفرس كانوا قد استعادوا ثغر الأبلة قبل القادسية. ولما انتصر المسلمون على الفرس فى القادسية أمر عمر سعداً بإرسال فصيلة من الجند إلى الأبلة لتمنع مجىء الفرس من ناحيتها ؛ فأرسل سعد عتبة بن غزوان فاستولى عليها مرة أخرى وعسكر بجنده فى موضع البصرة فى سنة ١٤ هـ واتخذت الأبنية فيها سنة ١٧ هـ كما اتخذت فى الكوفة

مُصرتا معاً، فالبصرة وإن نزلها المسلمون فى سنة ١٤ هـ لم يتم تخطيطها إلا فى سنة ١٧ هـ، ومن هنا كان الخلاف بين المؤرخين فى الزمن الذى مصرت فيه .

وبتمصير البصرة والكوفة ارتفع شأنهما ، وعظم أمرهما ، وأصبح لهما شأن عظيم فى قيادة الجيوش ، وصارتا منارتين للعلم والأدب فى العالم الإسلامى كله ، وحلت الكوفة محل الحيرة ، وحلت البصرة محل الأبلة .

فتح الأهـــواز

كانت الأهواز تحت سلطان الهرمزان ، وكان قد تراجع إليها بعد القادسية ، وجعل يقاوم العرب بشدة ويغير على ما بأيديهم مصطنعاً الدهاء والغدر ، فكتب عتبة بن غزوان أمير البصرة إلى الخليفة يستأذنه فى قتاله ، فأذن له وأمر سعداً أمير الكوفة أن يمده فأمده ، فخرجت جنود البصرة والكوفة لقتال الهرمزان والتقت به وهزمته ، ثم طلب الصلح فأجابوه على أن يبقى فى أيديهم ما أخذوه عنوة .

ثم حدث خلاف على حدود الأرضين بين رؤساء الجند المرابطين هناك ، فنقض الهرمزان الصلح ، فحاربه المسلمون وانتصروا عليه ، فعاد يطلب الصلح ثانية فأجابوه على مالم يفتحوه .

فتح رامهرمز

توالت الأنباء بأن يزدجرد يثير أهل فارس ويذمرهم على حرب العرب والثورة عليهم ؛ وأن أهل فارس والأهواز تواثقوا على حرب المسلمين ، وبلغت أنباء ذلك إلى عمر ، فكتب إلى سعد يأمره أن يبعث إلى الأهواز جنداً كثيفا كما أرسل إلى أبى موسى الأشعرى والى البصرة بأن يبعث كذلك جنداً إلى الأهواز ، ووصلت جيوش المسلمين إلى رامهرمز واصطدمت بالهرمزان وهزمته ، فلحق بتستر واعتصم بحصونها ، فحاصرها المسلمون عدة أشهر . ولما خارت قوى الهرمزان واشتد الأمر عليه نزل على حكم عمر فقبل منه المسلمون ، واستأسر لهم ، فأرسلوه إلى الخليفة ليرى رأيه فيه ، فأمنه عمر بعد أن أظهر الإسلام ، وفرض له فى العطاء ألفين وأقام فى المدينة كغيره من عامة الناس ، إلا أنه كان محور الاتصال بين أسرى الفرس ونفسه منطوية على الشر للمسلمين ولعمر مما أدى إلى مقتله كما سيتبين فيما بعد .

فتح نهاوند

كان من رأى عمر الاكتفاء بالعراق وعدم الانسياح فى بلاد الفرس . ولما انهزم الهرمزان وتستر وسيق إلى عمر مع الوفد الذى أرسله أبو سبرة بن رهم قائد المسلمين فى تستر ، أبان الأحنف بن قيس المتكلم عن الوفد لعمر أن الانسياح واجب ، لأن الفرس لا يزالون يساجلون

المسلمين ما دام ملكهم بين أظهرهم . ولا يزال هذا دأبهم حتى يزيله المسلمون من فارس ، فاقتنع عمر بوجاهة هذا الرأى .

ولقد كان انتصار المسلمين على الهرمزان مثيراً لحمية يزدجرد ، فجمع من ولايات الفرس الباقية على طاعته جيشاً كبيراً لاستعادة ملكه ، وبلغت أنباء تلك الحشود عمر ، فولى النعمان بن مقرن حرب هذه الحشود التى اجتمعت بنهاوند ، ووضع تحت قيادته من جنود البصرة والكوفة نحواً من ثلاثين ألف مقاتل ، فلما وصلوا إلى نهاوند رأوا جموعا عظيمة فى حصون قوية . فلما طال الأمر عليهم تبادل الرأى مع أهل النجدة وذوى الرأى فى الحرب ، وعملوا برأى طليحة الأسدى من الإحداق بالفرس وتحميسهم للقتال حتى إذا ما اختلطوا بالمسلمين استطردوا لهم ، ليطمعهم ذلك فى هزيمة المسلمين فيخرجوا إليهم فيجادوهم ويجادهم المسلمون ، فيقضى الله قضاءه ، وتم ذلك الترتيب الحربى (التكتيك) فأنشب القعقاع القتـــال فأنغضهم ثم تقهقر فظنها الفرس هزيمة فاغتنموها فخرجوا . فأمر النعمان بالهجوم وصالحهم المسلمون بالسيوف والتحموا معهم فى قتال مرير أريق فيه الغزير من دماء الفرس ، حتى زلقت بسببه فرس النعمان فسقط عنها فمات فأخفوا موته ! وحمل الراية من بعده خليفته حذيفة ابن اليمان ولم ينته النهار حتى حقت الهزيمة على الفرس.

ويسمى فتح نهاوند بفتح الفتوح؛ إذلم يكن بعده شديد حرب بين الفرس والمسلمين ،فكانت هذه الواقعة فاصلة فى أمر الفرس واستتبعت استيلاء المسلمين على همذان والرى ،كما استتبعت فرار يزدجرد إلى خراسان حيث ظل يعمل على استرجاع ملكه إلى أن توفى فى خلافة عثمان رضى الله عنه.

وبعد أن انتهت هذه الموقعة ، عمل عمر بمشورة الأحنف فأذن بالانسياح فى بلاد الفرس فكان الاستيلاء عليها ميسوراً بفرار يزدجرد إلى أقصى الحدود الشرقية ، وكان هو الباعث للفرس على المقاومة وبذلك امتد نفوذ المسلمين إلى السند ، وحققوا من الفتوح فى بضع سنين ما لا يزال يدهش العالم إلى اليوم .

هكذا أخضع الفرس لسلطان العرب السياسى ، وسرعان ما اعتنقوا الإسلام وتعلموا العربية واندمجوا فى المجتمع العربى وعرفوا باسم « الموالى » وكان لهم شأن من الشأن فى الحياة العامة السياسية والأدبية .

الفتوح فى بلاد الروم

دمشـــق :

انتهت موقعة اليرموك بهزيمة الروم ، واستخلف عليها أبو عبيدة بشير بن كعب الحيرى ، حتى لا يغتال بردة ولا تقطع عليه الروم موارده . وسار حتى نزل بالصفر ، فأتته الأخبار بأن الروم اجتمعوا بفحل ، وأن مدداً من حمص أتى أهل دمشق ، فاستطلع رأى عمر فى البداءة بأى الناحيتين : فحـــل أو دمشق ؟ فجاءه جوابه يقول:

أما بعدفابدءوا بدمشق فانهدوا لها فإنها حصن الشام وبيت ملكهم واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم فى نحورهم.

صدع أبو عبيدة بالأمر وسار إلى دمشق وحاصرها ، ووضع الجنود على الطرق المؤدية إليها لقطع الإمدادات عنها وجعل على أبوابها كبار قواده ، وشدد الحصار عليها نحواً من سبعين ليلة ، وأهلها يرجون الغياث ويأملون النجدة من هرقل الذى كان فى حمص فلما يئسوا من الغياث أبلسوا فى أمرهم وازداد طمع المسلمين فيهم .

وكان خالد بن الوليد لا ينام ولا ينيم ولا يبيت إلا على تعبئة ولا يخفى عليه من أمر عدوه شىء ، فبلغه أنه ولد لبطريقهم مولود وأنه صنع طعاما ، ودعى القوم يأكلون ويشربون . وكان قد اتخذ أوهاقا

وحبالا كهيئة السلاليم . فلما بلغه أن القوم غافلون عن مواقفهم انتهز هذه الفرصة ونهض بمن معه من الجند حتى انتهى إلى الباب الذى يليه فرمى الشرف بالحبال فما ثبت لهم وهقان حتى تسلق فيهما بعض أصحابه ولم يدعوا أحبولة إلا أثبتوها . وحذر خالد عامة أصحابه ، وانتهى إلى أول من يليه فأنامهم وثار أهل المدينة وفزع الناس ، وأعمل خالد السيف فى المقاتلة حتى لم يبق مما يلى بابه مقاتل .

وكان المسلمون قد دعوا أهل دمشق إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا . فلما استحر فيهم سيف خالد عرضوا ما رفضوا ، فقبل منهم أبو عبيدة فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ، ودخـــل خالد مما يليه عنوة ، فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح وكان صلحهم على المقاسمة . واستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبى سفيان . وأمره بفتح ما يجاورها ففتح صيدا وبيروت وغيرهما .

فحـــل

انتهى المسلمون من دمشق ، وتبعا لرأى الخليفة وما يوجبه الحزم اتجهوا إلى « فحل » من أرض الأردن إذ من خطل الرأى أن يتجهوا إلى حمص أو غيرها ووراءهم تلك القوة العظيمة التى قدرت بثمانين ألفا خصوصاً وأن من بفحل جُنة الروم وأن الشام بعدهم سلم.

سار أبو عبيدة إلى فحل ، وأمير الناس شرحبيل بن حسنة إذ هو صاحب السلطان فى تلك المنطقة من قبل أبى بكر وكان الروم قد بثقوا المياه عليهم ، فأردغت الأرض ثم وحلت ، واغتم لذلك المسلمون فى بادىء الأمر وبعد حصار دام طويلا ظنوا بالمسلمين غرة فهجموا عليهم واقتتلوا أشد قتال ليلتهم ويومهم إلى الليل ، فلما جن الليل عليهم حاروا وانهزموا وهم حيارى وضلوا الطريق فأسلمتهم هزيمتهم إلى الوحل وركبهم المسلمون ، فلم يفلت منهم إلا الشريد وكان الوحل الذى اغتم له المسلمون أولا أكبر معين لهم على القضاء على الروم .

موقعة مرج الروم

لما وصل إلى هرقل هزيمة جنده فى دمشق و « فحل » وأن المسلمين عزموا على قصد حمص ، أرسل إليهم جيشاً بقيادة توذر البطريق وأردفه بآخر وعليه شنس مدداً له ، وردءاً لأهل حمص .

التقى المسلمون بالروم فى مرج الروم غربى دمشق فكان أبو عبيدة بإزاء شنس وخالد بإزاء توذر وأصبح المسلمون وأمامهم شنس وحده والأرض خلو من توذر ، وعلم خالد أن توذر فيمن معه سار نحو دمشق فاقتفى أثره وما إن نشبت المعركة بينه وبين يزيد الذى استخلفه

أبو عبيدة على دمشق حتى طلع عليهم خالد من خلفهم فأخذتهم رماح يزيد من أمامهم وسيوف خالد من خلفهم فلم يفلت منهم إلا الشريد .

حمص

قصد المسلمون « حمص » فحاصروها وأقاموا على حصارها الشتاء كله وكان الروم يأملون أن يهلكهم البرد فلما ذهب الشتاء وانقطع الرجاء طلبوا الصلح فصالحهم المسلمون على مثل صلح أهل دمشق .

الحاضر

بعد أن فتحت حمص أرسل أبو عبيدة خالداً إلى قنسرين ، فلما نزل الحاضر التقى بجيش للروم عليه ميناس ـ وهو أعظمهم بعد هرقل ـ فقاتلهم قتالا شديداً ، وقتل ميناس وتساقط الروم عليه حتى هلكوا عن آخرهم .

قنسرين

لما انتهى خالد من الحاضر سار إلى قنسرين فتحصن أهلها منه فأرسل إليهم : « لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا » فنظروا فى أمرهم وطلبوا الصلح ، فأبى إلا على خراب المدينة وكان ما أراد فأخربها .

كان هرقل قد ترك حمص إلى الرها فلما أباد خالد الروم بالحاضر

وأخرب قنسرين يئس هرقل من بقاء الشام فى يده فودع سوريا الوداع الأخير وهو يقول : « عليك السلام ياسوريا سلاماً لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومى أبداً » .

ولما كان من أمر خالد ما كان من هذه الفتوح العظيمة رجع عمر عن رأيه فيه وقال فيه قولته المشهورة « أمّر خالد نفسه ! يرحم الله أبا بكر ! هو كان أعلم بالرجال منى » !.

وبانتقال هرقل إلى القسطنطينية خلا الجو لأبى عبيدة فى شمال الشام ففتح أقاليمه الواحد تلو الآخر واتصلت البلاد التى دانت للمسلمين بالشام بالبلاد التى دانت لهم بالعراق .

أجنادين

زحف عمرو بن العاص على أجنادين وكان بها الأرطبون (أرتبون) وهو أدهى الروم وأبعدهم غوراً ومعه جيش كبير ، ولما علم عمر بذلك قال : « قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج » .

اقتتل الفريقان قتالا شديداً يشبه قتال اليرموك ثم انهزم الروم وأوى الأرطبون إلى إيليا .

فتح بيت المقدس

سار عمرو إلى إيليا « بيت المقدس » يحفزه على فتحها أمران :

الأول : دينى ففيها البيت المقدس فلها مكانتها عند المسلمين والمسيحيين على السواء .

والثانى : سياسى وهو الرغبة فى القضاء على مابقى للروم فى الشام وفلسطين .

حاصر عمرو بيت المقدس زهاء أربعة أشهر ، تجلد فيها المسلمون لبرد الشتاء ، ولما طال حصارها فر الأرطبون إلى مصر ، فتولى بطريقها الدفاع عنها فلما يئس جنح إلى السلم ، على أن يكون المتولى لعقد الصلح هو عمر بن الخطاب نفسه .

ولعل السر فى ذلك يرجع إلى الخسائر التى أنزلها الروم بالمسلمين ، وقد دالت دولتهم ، وزال سلطانهم عن البلاد فأشفقوا ألا يجيبهم المسلمون إلى ما أجابوا إليه أهل البلاد التى فتحوها من صلح شريف تصان به دماؤهم وكنيستهم العظمى وقبلتهم المقدسة ويحرموهم ذلك بحق الفتح ، فرأوا توكيداً للأمان وزيادة فى توثيق عرى العهد ، أن يتولى ذلك خليفة المسلمين نفسه .

كتب عمرو بذلك إلى عمر فسار إلى الشام — وهى أول خرجة

خرجها ـ وأرسل إلى أمراء الشام أن يستخلفوا على ما بأيديهم ويوافوه بالجابية ، فلقوه بها على الخيول ، وعليهم الديباج والحرير فنزل عن برذونه ، وحصبهم بالحجارة وهو يقول لهم : سرع ما لفتم عن رأيكم إياى تستقبلون فى هذا الزى وإنما شبعتم منذ سنتين ! سرع ما ندت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم» فقالوا : إنها يلاطقة (يعنى أردية محشوة) وإن علينا السلاح ، قال فنعم إذن ، وركب حتى أتى الجابية وعمرو وشرحبيل يضربان الحصار على أجنادين لم يبرحاها . وهناك جاءته رسل أهل إيليا يطلبون السلام فسالمهم ، وكتب لهم عهد الذمة والأمان . أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وأظهر فيه كثيراً من التسامح معهم [1] ثم وضع أساس مسجده ورجع إلى المدينة فى أواخر سنة ١٥ ﻫ أو أوائل سنة ١٦ ﻫ وبذلك تم فتح الشام .

حوادث سنة ١٨ ﻫ

عام ١٨ ﻫ هو عام الرمادة كما يسميه العرب وذلك للجدب الشديد الذى انتاب البلاد العربية حتى هلك الخف والحافر، ولولا الإمداد التى جاءت من الشام إلى الحجاز لكانت المصيبة عظيمة .

---

(١) راجع نص هذا الكتاب فى كتب التاريخ الموسعة .

ولم يكد ينتهى الجدب حتى دهم الشام وجنوبى العراق الطاعون المعروف بطاعون عمواس . وقد هلك به من العرب فقط نحو من عشرين ألفاً من بينهم أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد بن أبى سفيان !

كان عمر قد هم بالمسير إلى الشام وسار فعلا حتى بلغ تبوك ، فبلغه نبأ الوباء فعاد إلى الحجاز، فلما انقطع الوباء سار إلى الشام ونظم أموره، وجمع الشام كله لمعاوية بن أبى سفيان.

فتح مصر

١٨—٢١ هـ ٦٣٨ — ٦٤١ م

حالة مصر قبل الفتح :

كانت مصر قبل الفتح الإسلامى خاضعة للروم ، وكانت حالتها إذ ذاك سيئة للغاية ، فقد لقى أهلها من الروم كل صنوف العنت والإجحاف ، إذ أوصدوا فى وجوههم المناصب الكبرى وقصروها على أنفسهم ، وفرضوا عليهم ضرائب فادحة عمت رءوسهم وصناعاتهم وتجارتهم وماشيتهم وأراضيهم ودورهم كما ألزموهم توفير الراحة لمن يمر بهم من الموظفين الرومان .

وفضلا عن ذلك اعتبروا مصر حقلا يمد بلادهم بما يحتاجون إليه من غلات .

ولما دان المصريون بالمسيحية اضطهدوهم لخروجهم على الوثنية التى كانوا يدينون بها ، وناهيك بما أصابهم فى عهد دقلديانوس ، إذ قتل علماء الملة وكبراءها حمية للوثنية ، مما جعل الأقباط يؤرخون بوقعة شهدائهم أولئك إلى اليوم ، وحتى بعد أن دخلت المسيحية بلاد الرومان وصارت الدين الرسمى لدولتهم ، كان النزاع الدينى على أشده بين المصريين اليعاقبة ، والرومان الملكانية ، لاختلافهم فى طبيعة المسيح ،

فكان الروم يعملون جاهدين على أن يعتنق المصريون المذهب الرسمى للدولة وهو المذهب الملكانى ، وبخاصة الامبراطور هرقل الذى ولى عليهم قيرس (المقوقس) وجمع له السلطتين : الدينية والزمنية ليحقق هذا الغرض ؛ فظل هذا يذيقهم العذاب ألوانا عشر سنوات ليحملهم على اعتناق هذا المذهب ، فاضطر الكثير منهم أن يفر بدينه إلى الجبال فساءت حالة البلاد وعمها الشقاء ؛ وتطلعوا إلى من يخلصهم من هذا البلاء وكانوا يسمعون عن عدل المسلمين وحسن سيرتهم مع أهل البلاد التى فتحوها ، ورجوا أن يكون فتح المسلمين لبلادهم مخففاً لآلامهم ، وأن يكون نير المسلمين أخف حملا من نير الروم ، حتى قال بتلر : « إن سيف قيرس قد قطع آخر ما كان يربطهم إلى الدولة الرومانية من أسباب الولاء ، وذلك لكثرة مالاقوه فى السنوات العشر من الظلم الذى نزل بهم إلى حضيض من الشقاء لا أمل معه . فرأوا فى مجىء المسلمين نازلة أرسلها الله لينتقم لهم بها من ظالميهم »[1].

ومما سبق يتضح أن حالة مصر قبيل الفتح الإسلامى كانت من أهم العوامل التى سهلت للعرب سبل الفتح .

---

(١) راجع كتاب تاريخ مصر الإسلامية للأستاذ محمد مبروك نافع ص ٣١

التفكير فى الفتح :

يرجع التفكير فى فتح مصر إلى عمرو بن العاص الذى كان يعرف الكثير عن أحوالها فاقترح على عمر بن الخطاب عند قدومه إلى بيت المقدس لتسلمه سنة ١٥ هـ كما سبق أن يأذن له فى فتحها ، ولكن عمر رغب عن ذلك . وعندما قدم الشام سنة ١٨ هـ على أثر طاعون عمواس أعاد عمرو عليه اقتراحه الأول وبرره بمبررات فيها مصلحة للمسلمين ،منها :

١ ـ أن مصر بلد سهل الفتح لا يكلف المسلمين الكثير من الأرواح ، لأنها غير محصنة ، وسوف يجد المسلمون مساعدة من المصريين لبغضهم لحكامهم الروم .

٢ ـ أن الأرطبون (أريطبون) وهو داهية الروم بعد هزيمته فى بيت المقدس فر إلى مصر وأخذ يعمل على تنظيم قواتها ، ليجعل منها قاعدة حربية لاسترداد البلاد التى فتحها المسلمون فى الشام .

٣ ـ أن مصر هى الامتداد الطبيعى الجنوبى لفلسطين ، وفى فتحها محافظة وتثبيت لأقدام المسلين فى الشام. ومنها يمكن المسلمين أن يثبوا إلى إفريقية إن أرادوا .

٤ ـ أن خيراتها وغلاتها كثيرة تعوض ما يتحمله المسلون فى سبيل

فتحها ، كما أن هذه الموارد تقوى المسلمين فى المحافظة على فتوحهم .

٥ ـ وفضلا عن ذلك فإن فتحها يحقق للمسلمين أهم غرض من فتوحاتهم وهو نشر الإسلام .

وعلى الرغم من هذه المبررات فقد تردد عمر ؛ لأن أقدام المسلمين لم تثبت بعد فى البلاد التى فتحوها ، ولأن جند المسلمين كانوا متفرقين فى الشام والعراق . وليس من السهل إعداد جيش تطمئن إليه نفس الخليفة لفتح مصر .

ولكن عمراً ألح على عمر وهون عليه فتحها وزينه له بالمبررات التى ذكرها له ، وما زال به حتى أذن له فى السير إليها . وعقد له على نحو من أربعة آلاف رجل .

مراحل الفتح

عندما أذن الخليفة لعمرو بالمسير قال له : « إنى مرسل إليك كتاباً فإن أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أوشيئاً من أرضها فانصرف ، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره » .

سار عمرو سالكاً الطريق التى سلكها الأقدمون فى فتحهم مصر

وهى الطريق المسايرة لساحل بحر الروم ، حتى إذا ما بلغ رفح أدركه رسول الخليفة بكتابه ، ولكنه لم يتسلمه من الرسول ، حتى إذا بلغ العريش أخذه منه . وبعد قراءته على أصحابه أمر الجيش بالسير مستعينا بالله .

الفرما :

وصل عمرو إلى العريش فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) وفتحها بلا مقاومة ، ثم غادرها إلى الفرما [١] التى كانت بمثابة مفتاح لمصر فى ذلك الحين فحاصرها نحواً من شهر ، صبر فيه المسلمون وصابروا حتى تم لهم فتحها فى المحرم سنة ١٩ هـ (منتصف يناير سنة ٦٤٠ م) .

بلبيس :

سار عمرو إلى بلبيس ملتزما حدود الصحراء الشرقية مخالفاً بذلك من سبقوه لتكون ملجأ له ، ولخلوها من القنوات والمستنقعات والتقى بجيش الروم بقيادة الأرطبون ، ودار بينهما قتال شديد قتل فيه الأرطبون وكثير من جنده ، واستولى المسلمون على المدينة .

---

(١) الفرما : مدينة تاريخية قديمة ذات حصون قوية ولها ثغر على البحر ويصل إليها جدول ماء من النيل .

أم دنين :

بعد موقعة بلبيس اتجه عمرو إلى قرية «أم دنين»[١] والتحم بالروم ودام القتال بينهما عدة أسابيع ، فلما أبطأ عليه الفتح كف عن القتال وكتب إلى عمر يستمده ، وعزم على أن يغادر ذلك المكان الحرج ويشغل جنده ريثما يصله المدد. فعبر النيل متجها إلى الفيوم . فاستعصى عليه فتحها ! فعاد وقد قدم المدد وعلى رأسه أربعة من كبار الصحابة وهم :الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، والمقداد ابن الأسود وكتب إليه الخليفة: « قد أمددتك بأربعة آلاف فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل » .

وبعد أن عبر عمرو النيل إلى جانبه الشرقى انضم إليه المدد كما انضم إليه من قبل كثير من أعراب سيناء ثم عسكر شمالى عين شمس .

موقعة عين شمس سنة ٢٠ هـ

كان القائد الرومانى تيودور قد حشد جيشاً عدته عشرون ألفاً لملاقاة المسلمين .فأ كمن له عمرو كمينا فى الجبل الأحمر وآخر على النيل قريبا من «أم دنين» ثم لاقاه ببقية الجيش ولما حمى وطيس القتال بين الفريقين انقض كمين الجبل الأحمر على الروم فاختل نظامهم

(١) موقعها الآن ما بين حديقة الأزبكية وعابدين إلى النيل .

فاتجهوا إلى أم دنين فصدمهم الكمين الذى كان بقربها ، فكان من نتيجة ذلك التدبير سحق الجيش الرومانى والاستيلاء على أم دنين وعين شمس وجعلها مقرا لقيادة المسلمين ، والشروع فى حصار حصن بابليون (جنوبى مصر القديمة) ولعدم وجود معدات الحصار مع العرب اكتفى عمرو بالمرابطة حول الحصن .

المقوقس يطلب الصلح :

بعد حصار دام شهراً رأى المقوقس شجاعة العرب وصبرهم على القتال وأنهم سوف يقتحمون الحصن فتمكن من الخروج فى نفر من قومه إلى جزيرة الروضة لمفاوضة العرب فى الصلح وأرسل إلى عمرو وفدا يطلب الصلح فأبقى عمرو الرسل عنده يومين ليروا بأعينهم أحوال المسلمين فيوهن ذلك من عزيمتهم للقتال . ثم قال لهم: ليس بيننا وبينكم إلا إحدى خصال ثلاث :

١ ـ إما دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا وعليكم ما علينا .

٢ ـ وإن أبيتم فالجزية عن يد وأنتم صاغرون .

٣ ـ وإما القتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو أحكم الحاكمين .

ولما رجعت رسل المقوقس إليه سألهم عن أحوال العرب فأجابوه بأننا « رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف كبيرهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم » .

أرهب هذا الوصف المقوقس وألقى الرعب فى قلبه فأشار على قومه بطلب الصلح وحاول مع المسلمين أن يجيبوه إلى خصلة أخرى غير هذه الثلاث فلم يفلح. وأخيراً قبل الصلح على أن يؤدى الروم الجزية للعرب ، وطلب المهادنة إلى أن يوافق هرقل الذى ثار وحنق حينما وصله كتاب المقوقس بالموافقة على الصلح ، وأرسل يوبخ المقوقس ويستقدمه إلى القسطنطينية .

ولما علم العرب بـــذلك واصلوا الحصار وكان القبط أعواناً للمسلمين والمقوقس ضالعاً معهم . وبينما الأمر كذلك إذ بلغهم موت هرقل فكان ذلك مثبطاً للروم وباعثاً على تسليم الحصن . وقد تم ذلك فى ربيع الآخر سنة ٢٠ هـ .

وكان من نتيجة الاستيلاء على الحصن أن أصبح المسلمون يسيطرون على معظم البلاد ، ويتحكمون فى الصعيد والدلتا معاً .

فتح الإسكندرية (١)

زحف عمرو إلى الإسكندرية واشتبك بالروم فى موقعة كبيرة عند دمنهور ، انهزم فيها الروم وانحازت فلولهم إلى الإسكندرية فتبعهم عمرو إليها وكانت الإسكندرية فى ذلك الوقت قصبة الديار المصرية ومحصنة من البر ، ويحميها البحر الأبيض من شمالها ويدافع عنها نحو من خمسين ألف مقاتل .

حاصر عمرو الإسكندرية فاستعصت عليه لذلك ، فترك بظاهرها جيشاً يحاصرها وسار هو لإخضاع البلاد الواقعة فى شمالى الدلتا ، وفى ذلك الوقت كانت الحالة السياسية مضطربة فى القسطنطينية ، وكان الحكم الفعلى للإمبراطورة مرتينا فاستدعت المقوقس من منفاه وفوضت إليه إنهاء الحرب فى مصر . وأفلح المقوقس هذه المرة فى إقناع حكومة القسطنطينية لضرورة الصلح مع العرب ، فعاد إلى الإسكندرية ثم التقى بعمرو وعقدا معاهدة بالشروط الآتية :

١ ـ أن يدفع كل من تجب عليه الجزية دينارين فى كل سنة .

٢ ـ أن تكون هدنة بين الفريقين مدتها أحد عشر شهراً .

---

(١) كانت الإسكندرية فى ذلك الوقت أول مدينة تجارية فى العالم وثانية حواضر الإمبراطورية الرومانية .

٣ ـ أن تجلو الجيوش الرومانيه عن الإسكندرية على أن يدفعوا جزية شهر عند رحيلهم .

٤ ـ ألا يتدخل المسلمون فى شئون المسيحيين الدينية ، وألا يتعرضوا لكنائسهم بسوء .

٥ ـ أن يسمح لليهود بالإقامة فى الإسكندرية .

٦ ـ ألا يحاولوا استرداد مصر ثانية .

٧ ـ أن يكون بيد المسلمين مائة وخمسون من مقاتلة الروم وخمسون من غير المقاتلة ، ضماناً لتنفيذ هذه الشروط .

وأمضيت هذه المعاهدة فى ديسمبر سنة ٦٤١ م .

ولما سمع أهل الإسكندرية بهذه الشروط هاجوا وأبوا ، ولكن المقوقس استطاع أن يقنعهم بأن هذا الصلح خير لهم .

وفى أول المحرم سنة ٢١ هـ تسلم العرب أول جزيرة مصرية من المقوقس .

ومع أن الإسكندرية قد سلمت للعرب ، فإن كثيراً من المدن الساحلية لم تقبل هذه الشروط ، فمازال بها عمرو حتى أخضعها جميعها فى أواخر العام المذكور .

وفى سبتمبر سنة ٦٤٣ م غادر الروم الإسكندرية ودخلها العرب .

أراد عمرو أن يجعل الإسكندرية قصبة البلاد كما كانت قبل الفتح فكتب إلى الخليفة بذلك ، فسأل عمر الرسول : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين إذ أجرى النيل . فكتب إلى عمرو : إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف . متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت » [١] فتحول عمرو عن الإسكندرية إلى المكان الذى كان معسكر المسلمين حينما حاصروا حصن بابليون واختط مدينة الفسطاط وهى أول مدينة اختطها المسلمون فى مصر بعد الفتح الإسلامى سنة ٢١ هـ .

مكتبة الاسكندرية :

نسب بعض المتأخرين من المؤرخين إحراق مكتبة الإسكندرية إلى عمرو بن العاص ، وزعم أن عمر بن الخطاب هو الذى أمره بإحراقها ، وناقش كثير من علماء الفرنجة مثل جبون ، وبطلر ، وسديو ، وجستاف لوبون وغيرهم هذه المسألة ولم يقطعوا فيها برأى ، بل ارتابوا فى صحة هذه التهمة وقالوا : إنها تخالف التقاليد الإسلامية ولا يؤيدها أحد من المؤرخين المعاصرين للفتح الإسلامى مثل أوتيخا الذى أسهب

(١) التنبيه والإشراف للمسعودى ص ٣١١ ، الخطط المقريزى ج ١ ص ٢٩٦ وراجع كتابنا تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٢٤٠ - ٢٤٣ .

فى وصف الفتح الإسلامى لمصر . كذلك لم يرد لهـا ذكر فى تاريخ الأقدمين كاليعقوبى والطبرى والبلاذرى والكندى وابن عبد الحكم، كما لم يؤيده من جاء بعدهم وأخذ عنهم كالمقريزى والسيوطى وغيرهما .

ناقش الكثير من المؤرخين والفرنجة هذه التهمة مناقشة طويلة . وأخيراً هذا الأتهام يعوزه الدليل القوى المقنع [١] .

---

(١) راجع تاريخ الإسلام السياسى للدكتور حسن إبراهيم .

فتح برقة (١)

بعد أن تم لعمرو فتح مصر ، وفرغ من تنظيم أمورها ، أراد أن يؤمن هذا الفتح من الغرب بفتح برقة وطرابلس ، ومن الجنوب بفتح بلاد النوبة فسار بفرسانه يريد برقة فى أواخر سنة ٢١ ﻫ كما ذكر ابن خلدون وياقوت والكندى وغيرهم ، أو أوائل سنة ٢٢ ﻫ كما ذكر ابن الأثير وبعض المؤرخين (النصف الأول من سنة ٦٤٣ م) .

قدم عمرو برقة فصالحه أهلها على جزية سنوية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار ، يدفعونها بأنفسهم للمسلمين فى مصر . يقول ياقوت فى معجمه : « وهى مما افتتح صلحا .... وألزم أهلها من الجزية ثلاثة عشر ألف دينار .... وأسلم أكثر من بها فصولحوا على العشر ونصف العشر . . . وكان شرطهم ألا يدخلها صاحب خراج ، بل يوجهوا بخراجهم فى وقته إلى مصر » (٢) .

---

(١) كانت برقة — كما ذكر البلاذرى — تسمى انطابلس .

(٢) إذا لاحظنا هذا الشرط فإنا نتبين أن أهل برقة يتميزون منذ القدم بعزة النفس كما يتصفون بالوفاء وقد وصفهم بذلك عبد الله بن عمرو فقال : « كان أهل برقة يبعثون بخراجهم إلى والى مصر من غير أن يأتيهم جاب أو مستحث فكانوا أخصب قوم بالمغرب ولم يدخلها فتنة » ، بل إن ابن عمرو تمنى أن يعيش فى برقة إذ يقول : ما أعلم منزلا لرجل له عيال أسلم ولا أعزل من برقة ولولا أن أموالى بالحجاز لنزلت برقة . فتوح البلدان للبلاذرى .

أرسل عمرو إلى الخليفة يخبره بذلك «وأنه قد ولى على المغرب عقبة بن نافع الفهرى فبلغ زويلة وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم حسنة طاعتهم ، قد أدى مسلمهم الصدقة وأقر معاهدهم بالجزية وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه . . . . »[١]

---

(١) المصدر السابق .

فتح طرابلس (١)

بعد أن صالح عمرو أهل برقة اتجه إلى طرابلس ، وكانت مدينة حصينة وبها جيش كبير من الرومان فقاومته واستعصت عليه فضرب عليها الحصار أكثر من شهر ، وأخيراً تسلل جماعة من المسلمين بين أسوار المدينة والبحر غربى المدينة ، وكان البحر لاصقاً بها وليس بينه وبينها سور من هذه الجهة ، وكانت سفن الروم شارعة فى مرساها إلى بيوتهم .

اصطدمت هـــذه الجماعة من المسلمين بجماعة من الروم فقاتلوهم وكبروا . وكان لتكبيرهم دوى ، ففر الروم وتبعهم المسلمون يكبرون فذعر حراس الأبواب فتركوها وفزعوا إلى سفنهم ففروا بها . ودخل عمرو المدينة وغنم ما كان فيها .

ثم انقض على مدينة صبرة على حين غفلة من أهلها ففتحها عنوة وغنم منها الشيء الكثير . وكتب إلى الخليفة يستأذنه فى مواصلة السير غربا لفتح إفريقية إلا أن الخليفة أمره بالتريث حتى يستقيم له أمر البلاد فى مصر ، فعاد عمرو إلى مصر وأرسل جيشاً إلى بلاد النوبة فلم يستطع إخضاعها على الرغم مما تكبده من خسائر فادحة وظلت المناوشات بين الفريقين حتى عقد الصلح بينهما فى عهد الخليفة الثالث عثمان رضى الله عنـــه .

---

(١) يقال لها إطرابلس وسماها اليونانيون طرابليطة .

مقتل عمر!

إن ماقام به عمر بن الخطاب من الأعمال العظيمة ، وما تم على يد ذلك الحاكم الديمقراطى تجعله أحد المصلحين الأفذاد ، وواحداً من عظماء التاريخ .

على أن حياة هذا الرجل الكبير قد ختمت ختاماً ما كان ينتظر لمثله ! فقد اغتاله رجل فارسى يعرف بفيروز ويكنى بأبى لؤلؤة . وكان هـــذا الفارسى للمغيرة بن شعبة وهو يجيد النجارة والحدادة والنقش ، فطعنه بخنجر له رأسان ست طعنات : إحداها تحت سرته وهى التى قتلته ! ثم طعن نفسه طعنات أردته قتيلا حينما علم أنه مأخوذ لا محـــالة .

والظاهر أن ذلك كان تنفيذاً لمؤامرة دبرها بعض أسرى الفرس الذين نقلوا إلى المدينة وربمـــا كان للهرمزان الذى سبقت الإشـارة إليـــه يد فى هـذا الحادث ، لـكن ذلك لم يثبت ثبوتاً قاطعاً .

وكانت وفاته رضى الله عنـــه لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ بعـد أن ولى الخلافة عشر سنين وستة أشهر . وكان عمره عند وفاته ثلاثا وستين سنة . وهى السن التى توفى فيهـــا النبى صلى الله

عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه . ودفن فى حجرة عائشة بعـــد استئذانها إلى جانب صاحبيه : أبى بكر والرسول صلوات الله عليـــه .

ولمـا أخبره ابن عباس أن الذى قتله هو غلام المغيرة قال : الرجل الصنع ؟ قال نعم ، قال : « قاتله الله لقد أمرت به معروفا ، الحمـــد لله الذى لم يجعل منيّتى على يد رجل سجد لله سجدة واحدة يحاجنى بهـــا عند الله » !

عثمان بن عفان

رضى الله عنه

٢٣ – ٣٥ هـ ٦٤٤ – ٦٥٦ م

عثمان بن عفان رضى الله عنه

٢٣ — ٣٥ هـ ٦٤٤ — ٦٥٦ م

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف بن قصىّ الأموى القرشى ، وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب ابن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى وهى بنت عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمّ حكيم بنت عبد المطلب . وكانت تَوْءَمَةً لعبد الله والد النبى صلى الله عليه وسلم . ولد بعد مولد الرسول صلوات الله عليه بخمس سنين وقيل بست . واشتهر بالكرم والحياء ، وكان حليما محسناً لين العريكة رقيق القلب حتى « إنه كان لايوقظ نائماً من أهل بيته ، إلا أن يجده يقظان فيدعوه فينا وله وضوءه وكان يصوم الدهر »[1] .

أسلم بدعوة أبى بكر رضى الله عنه ، وكان من السابقين الأولين . وزوجه النبى صلى الله عليه وسلم ابنته رقية وهاجرت معه إلى الحبشة وشهد مع الرسول عليه الصلاة والسلام غزواته غير غزوة بدر لاشتغاله بتمريض زوجته التى ماتت فى اليوم الذى انتصر فيه المسلمون فى هذه الغزوة ، فعده الرسول من البدريين وأسهم له فى الغنيمة ، ثم زوجه ابنته الثانية أم كلثوم ولقب بذى النورين ، لزواجه بابنتى النبى صلى الله

(١) الإصابة لابن حجر ج ٤ ص ١٧٨ .

عليه وسلم ، ولما توفيت أم كلثوم فى السنة التاسعة من الهجرة قال له النبى عليه الصلاة والسلام : « لو كانت لنا ثالثة لزوجنا كها ياعثمان » .

وكان الرسول يستعين به فى كثير من الأمور ، فكان سفيره لقريش فى صلح الحديبية حينما منعته وأصحابه من أداء العمرة، ولما شاع نبأ قتلهم إياه بايع الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بيعة الرضوان ، وقد بذل الكثير من ماله فى سبيل الله: فجهز جيش العسرة إلى تبوك ، إذ أمده بتسعمائة وخمسين بعيراً وخمسين فرساً وألف دينار ، كما حفر بئر رومة ، واشترى بئر معونة من يهودى بعشرين ألف درهم وتصدق بها على المسلمين ، ويؤثر أن النبى صلوات الله عليه قال: «لكل نبى رفيق ورفيقى فى الجنة عثمان » وكان له فى نشر الدعوة مواقف مشهودة .

روى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أبى بكر وعمر ، كما روى عنه كثير من الصحابة والتابعين. وبلغ ماروى له عن النبى صلى الله عليه وسلم - كما ذكره النووى فى تهذيبه - مائة وستة وأربعين حديثا . وهو أحد الذين مات النبى وهو عنهم راض ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، ولما مات الرسول صلوات الله عليه كان أمينا لخليفته أبى بكر رضى الله عنه .

قصة الشورى وبيعة عثمان

توفى النبي صلى الله عليه وسلم دون أن ينص على من يخلفه فى إمامة المسلمين ، كما لم يرو عنه بيان نظام خاص لانتخاب الخليفة ، فاختار المسلمون أبا بكر خليفة عنه صلى الله عليه وسلم . ولما حضرته الوفاة عهد لعمر بن الخطاب بالخلافة فسمع المسلمون وارتضوا عمر خليفة . فلما طعن عمر لم يدر أى الطريقتين يتبع ، وقال : فإن استخلف فقد استخلف من هو خير منى (يعنى أبا بكر) وإن أترك فقد ترك من هو خير منى (يعنى الرسول صلوات الله عليه) ولن يضيع الله دينه . وقد روى أنه قال عند ما طلب منه أن يستخلف : « من أستخلف ؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا استخلفته ، فإن سألنى ربى قلت : سمعت نبيك يقول : إنه أمين هذه الأمة ، ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا استخلفته فإن سألنى ربى قلت : سمعت نبيك يقول : إن سالماً شديد الحب لله » فقال رجل أدلك عليه ؟ عبد الله بن عمر ، فقال له : قاتلك الله ! والله ما أردت الله بهذا ، لا أرب لنا فى أموركم ، ما حمدتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتى ، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمة محمد ، أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى وإن أنج كفافا لا وزر ولا أجر إنى لسعيد » .

ولما أعادوا عليه طلب الاستخلاف قال لهم : عليكم بهؤلاء

الرهط الذين مات رسول الله وهو عنهم راض . وقال فيهم : إنهم من أهل الجنة : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وأوصى أن يكون معهم عبد الله بن عمر على ألا يكون له من الأمر شيء .

وقد أوصى ألا يمضى على وفاته ثلاثة أيام حتى يكونوا قد انتخبوا واحداً منهم فلما دفن عمر اجتمع هؤلاء الخمسة الأوائل وكان طلحة غائباً واشتوروا فيمن يلي الخلافة، فظهر فيهم التنافس واختلاف الرأى، فقال لهم عبد الرحمن بن عوف : « أيكم يخلع نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ » فلم يجبه أحد، فقال: فأنا أخلع منها نفسى ، فرضى القوم . وأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله على أن يرتضوا من يختار لهم ، وعلى ألا يخص ذا رحم لرحمه وألا يتبع الهوى . وأخذ يستشير الصحابة وأمراء الأجناد وأشراف الناس . ولما كان قد خلع نفسه ، وكف سعد والزبير عن التطلع للخلافة ، وكان طلحة غائباً — انحصر الأمر فى على وعثمان . واختلف الناس وظهر التنافس بين بنى هاشم وبنى أمية وانقضت الأيام الثلاثة المضروبة دون أن ينتخب الخليفة !

فلما كانت صبيحة اليوم الرابع جمع عبد الرحمن بن عوف من كان حاضراً من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد وشاورهم فى الأمر فظهر الخصام واللجاج بين بنى هاشم وبنى أمية حتى كاد القوم يفتتنون !

فقال سعد بن أبى وقاص يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس. فدعا إليه على بن أبى طالب وقال له: «عليك عهد الله وميثاقه لتعملنّ بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده» قال: «أرجو أن أفعل فأعمل بمبلغ علمى وطاقتى» فدعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلى فقال: نعم. فوضع عبد الرحمن يده فى يد عثمان وقال: اللهم اسمع واشهد، إنى قد جعلت كل ما فى رقبتى من ذلك فى رقبة عثمان فبايعه وبايع الناس من بعده، فأحزن ذلك على بن أبى طالب وسائر بنى هاشم....[1].

وكانت بيعة عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ نوفمبر سنة ٦٤٤ م.

منهجه فى الحكم:

بعد أن تمت البيعة لعثمان رضى الله عنه، خطب الناس خطبة لا تبين منهجه فى الحكم، إذ كانت كلها نصائح تتعلق بالدين لا بالسياسة. ويبدو أنه كان لا يريد أن يلزم نفسه بسياسة خاصة لما فطر عليه من اللين والتدين والتعلق بآثار السلف، ولكنه تدارك ذلك فى كتبه إلى عماله وقواده فى الأمصار، إذ حثهم على الأمر بالمعروف والنهى عن

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٩٢ - ٩٨ المطبعة التجارية.

المنكر ومعاملة أهل الذمة بالحسنى ونصح عمال الخراج بأن يأخذوا الحق وأن يقوموا على الأمانة، وألا يظلموا اليتيم ولا المعاهد.

أول قضية نظر فيها:

لما طعن عمر وعرف أن الذى قتـــله هو أبو لؤلؤة وتحدث عبد الرحمن بن أبى بكر بأنه رأى أبا لؤلؤة والهرمزان وجفينة يتناجون قبل مقتل عمر، وأنه حينما دنا منهم قاموا فسقط بينهم خنجر أوصافه هى أوصاف الخنجر الذى طعن به عمر. ولما مات عمر اشتمل ابنه عبيد الله سيفه فقتل الهرمزان وجفينة وابنة أبى لؤلؤة فحبسه صهيب وكان قائماً مقام الخليفة.

ولما بويع عثمان جمع المسلمين ودعا عبيد الله وقال: اشيروا علىّ فى هذا الذى فتق فى الإسلام ما فتق، فأشار علىّ بقتله، فقال بعضهم: قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم، فقال عمرو بن العاص: ياأمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المؤمنين سلطان فقال عثمان: أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها فى مالى. وقد أنكر ذلك على عثمان علىّ وجماعة من المسلمين، وعابوا عليه العفو فى حدود الله، وظل علىّ متمسكا برأيه حتى ولى الخلافة فطلب عبيد الله ليقتص منه للقتلى، فهرب إلى الشام وانضم إلى معاوية.

ولاجدال فى أن عبيد الله قد افتات على حق الخليفة إذ باشر القصاص بنفسه وفى ذلك ما يؤدى إلى فساد الأمور فى الدولة ، ولكن مع ذلك يجب تقدير الظروف التى أحاطت بالحادث وأثرها فى نفسية عبيد الله أو ربما كان هول المصاب جعله كالمصاب بضرب من الجنون ومهما يكن فإن الهرمزان كان مضرب المثل فى الغدر ونكث العهد مع المسلمين . فلا يستبعد منه تدبيره مقتل عمر. وأما إسلامه فلا يعلم مبلغه من الصحة إلا الله تعالى . وجفينة لم يكن أقل خبثاً من الهرمزان وابنة أبى لؤلؤة قتلت بلا ذنب ! مما يدل على أن عبيد الله لم يكن من الوعى والإدراك بحيث لا يقتل مثلها ، غير أننا لا ننسى أخيراً أن هذه القضية فصل فيها الخليفة على ملأ من كبار الصحابة .

الفتوح الإسلامية فى عهده

كانت الفتوح الإسلامية التى تمت فى زمن عثمان امتداداً لحركة الفتح التى ابتدأت فى زمن أبى بكر وأهم هذه الفتوح ما يأتى :

طبرستان :

فتحت طبرستان وهى بلاد واسعة على ساحل بحر الخزر (قزوين) على يد سعد بن العاصى . وكان فى الجيش الحسن والحسين سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عباس وابن عمر والزبير بن العوام وعمرو بن العاص .

خراسان :

كانت الثورة عامة بفارس بعد مقتل عمر ، لإخراج العرب منها . فأمر عثمان عبد الله بن عامر عامله على البصرة بقمع الثورة ، فنهض فى سنة ٣١ هـ فى جيش كبير ، واشتبك مع أهل هذه البلاد واستولى على أكبر مدنها : نيسابور ، ومرو ، وسرخس ، وأمعن فى سيره حتى بلغ مدينة بلخ وإقليم طخارستان ثم عاد إلى البصرة بعد أن أبقى جندا من جيشه لإقرار الأمر فى كرمان وسجستان .

وفى هذه السنة قتل يزدجرد بن شهريار آخر ملوك الدولة الساسانية وكان فى خراسان يكاتب إمبراطور الصين وملوك الترك ويستنجد بهم على العرب ، قتله غيلة فى أثناء فراره بعض أهل مرو . وبمقتله وضع الفرس السلاح الذى ظلوا يحاربون به العرب نحواً من عشرين سنة . لإعادة استقلالهم واسترجاع أملاكهم ، ولكنهم استخدموا سلاحاً آخر أمضى من آلات الحروب ، وهو سلاح السياسة والدهاء ، وسنرى ما سيكون له من أثر فى دولة الإسلام ! !

الثغور :

ولى عثمان على الكوفة الوليد بن عقبة وأمده بأربعين ألف مقاتل للمحافظة على الثغور ، فجعل منهم عشرة آلاف لغزوها مرة فى كل

سنة وقد غزا أذربيجان وأرغمها على دفع الجزية التي منعتها كما سيّر جيشاً إلى أرمينية وأعاد أهلها إلى الطاعة .

الشام وأرمينية :

كان عثمان قد جمع لمعاوية الشام كلها فغزا الروم حتى بلغ عمورية في آسيا الصغرى ، واستولى على جزيرتي قبرص ورودس وسير حبيب ابن مسلمة إلى أرمينية سنة ٢٥ هـ فأوغل فيها حتى بلغ تفليس وشواطىء البحر الأسود : بلاد القوقاز) .

إفريقية .

ولى عثمان رضى الله عنه عبد الله بن سعد بن أبي سرح مصر بدلا من عمرو بن العاص سنة ٢٧ وأذن له بعد أن استشار كبار الصحابة في غزو إفريقية ، وأرسل إليه جيشاً يضم كثيراً من أعيان الصحابة فسار به إلى إفريقية وانقطعت أخبار هذا الجيش عن الخليفة ، فأرسل عبد الله بن الزبير في جماعة ليأتيه بأخبار الجند ، فلما وصل إفريقية لم تعجبه الخطة التي يسير عليها ابن سعد مع العدو ، إذ وجده يقاتل عدوه كل يوم إلى الظهيرة ثم يعود إلى معسكره بعد ذلك إلى اليوم التالي ، فأنكر ابن الزبير ذلك على ابن أبي سرح لما في خطته هذه من إتاحة الفرصة لعدوه في الاستعداد ، فأشار عليه بتقسيم الجيش إلى

فرقتين تقوم إحداهما بالقتال فى أول النهار وتباغت الأخرى العدو عندما يأوى إلى معسكره ، فنزل له ابن أبى سرح عن قيادة الجيش لينفذ خطته . فلما التقى الجيشان وانصرفا فى الظهيرة كالمعتاد انقض ابن الزبير بالفرقة التى لم تقاتل أول النهار على جيش الأعداء الذين أنهكتهم الحرب فى أول النهار وغشيهم فى خيامهم فهزمهم هزيمة منكرة ، وقتل ملكهم جرجير .

وبفضل هذه الخطة أحرز المسلمون هذا النصر العظيم ، وغنموا المغانم الكثيرة حتى بلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار .

عاد ابن الزبير إلى المدينة بالغنائم والنصر ففرح الخليفة بذلك وطلب إليه أن يخطب الناس فخطبهم خطبة بليغة أخذت بألباب المسلمين وذكر لهم فيها نصر الله للمسلمين .

النوبة :

اتجه ابن أبى سرح جنوباً وغزا بلاد النوبة من جديد - وكان عمرو ابن العاص قد غزاها من قبل - فبلغ دنقلة سنة ٣١ هـ وبعد أن قاتلهم قتالا شديداً لم يتمكن من فتحها وهادنهم وعقد معهم صلحاً هو أشبه بمعاهدة اقتصادية . ولما دار فيها من قتال شديد قال فيها قائلهم :

لم تر عيني مثل يوم دنقلهْ والخيل تعدو بالدروع مثقلهْ

موقعة ذات السوارى :

رأى الروم تلاحق هزائمهم أمام المسلمين فعمدوا إلى ميدان آخر لم يتقنه العرب وهو الحرب فى البحر رجاء أن يظفروا بالمسلمين ويستعيدوا ما استولوا عليه من أملاكهم فأعدوا لذلك أسطولا كبيراً بلغت سفنه أكثر من ستمائة سفينة بينما كانت سفن المسلمين لا تزيد على مائتى سفينة .

ويروى لنا الطبرى ما كان فى هذه الموقعة عن مالك بن أوس الذى اشترك فى قتالها فيقول :

« كنت معهم فالتقينا فى البحر فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط وكانت الريح علينا فأرسينا ساعة وأرسوا قريباً منا وسكنت الريح عنا فقلنا الأمن بيننا وبينكم قالوا ذلك لكم ولنا منكم ثم قلنا إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم وإن شئتم فالبحر . قال : فنخروا نخرة واحدة وقالوا : الماء ، فدنونا منهم فربطنا السفن بعضها إلى بعض حتى كنا يضرب بعضنا بعضا على سفننا وسفنهم فقاتلنا أشد القتال ووثبت الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن

ويتواجئون بالخناجر حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما ».

وقتل يومئذ من المسلمين كثيرا وقتل من الكفار مقتله عظيمة لم ينج منهم إلا القليل . وصبر الفريقان يومئذ صبراً لم يصبروه فى موقعة قط ، لأن كلا الفريقين يعرف أنها موقعة فاصلة لها ما بعدها .

أنزل الله نصره على عباده المسلمين وانهزم قسطنطين بعد أن أصيب بجراحات بالغة . وكانت هـــذه الموقعة فى سنة ٣١ هـ بالقرب من الإسكندرية وعرفت بذات السوارى لكثرة سوارى السفن التى اشتركت فيها [١] .

استولى المسلمون فى هذه الموقعة على كثير من السفن التى ساعدتهم على إنشاء أسطول مصرى كان له شأن يذكر فى المواقع الحربية التى دارت بين المسلمين والروم فى أيام الأمويين .

قيام البحرية الإسلامية :

لم يكن عرب الحجاز فى بادىء أمرهم ـ لبداوتهم ـ مهرة فى ركوب البحر وثقافته وممارسة أحواله .

---

(١) راجع الطبرى جـ ٣ ص ٣٣٨ - ٣٤١ .

وأول من ركبه منهم للفتح العلاء بن الحضرمى والى البحرين فى عهد عمر رضى الله عنه فقد أحب أن يؤثر فى الفرس أثراً يعز الله به الإسلام فندب أهل البحرين فى سنة ١٧ هـ لفتح بلاد فارس فبادروا لحملهم فى السفن بغير إذن عمر وعبر بهم الخليج الفارسى ولكنه لم يفلح فى غزوته وغرقت سفنه ، فشق ذلك على عمر وعزله وتوعده وجعله تحت إمرة سعد بن أبى وقاص أمير الكوفة .

ولما فشا الإسلام وخفقت أعلامه على سواحل الشام ومصر ورأى المسلمون سفن الروم وعرفوا مهارتهم فى ركوب البحر والحرب فى أساطيله تاقت نفوسهم للغزو فى البحر ومجاراة الروم فى ذلك ، ولحماية السواحل والبلاد التى فتحوها ودفع أخطار الروم عنها وكان أشدهم توقاً إلى ذلك معاوية والى الشام فقد كتب إلى الخليفة عمر يستأذنه فى غزو الروم بحراً فأبى فألح عليه ورغبه فى الفتح والغنائم وقال له فيما قال : إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح دجاجهم حتى كاد ذلك يأخذ بقلب عمر فكتب إلى عمرو بن العاص أن صف لى البحر وراكبه فإن نفسى تنازعنى إليه فكتب إليه عمرو : « يا أمير المؤمنين إنى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء إن ركد أحزن القلوب ، وإن ثار أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيـــه كدود على عود .

إن مال غرق وإن نجا برق » فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية: « لا والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلما أبداً » « وتالله لمسلم أحب إلىّ مما حوت الروم فإياك أن تتعرض لى وقد تقدمت إليك وقد عرفت ما لقى العلاء منى ولم أتقدم إليه فى مثل ذلك » .

ولما ولى عثمان رضى الله عنه الخلافة « لم يزل به معاوية حتى عزم على ذلك بآخرة » وقال لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم ، خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه ففعل » .

ولما استقر الأمر للمسلمين وشمخ سلطانهم وخضع لهم غيرهم تقرب إليهم كل ذى صنعة بمبلغ صناعته وأنشئوا لهم السفن والشوانى فاستخدموا لها من النواتية فى حاجتهم البحرية أمما تقوم عليها وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته فاستحدثوا بصراء بها وشرهوا إلى الجهاد فيه وأنشئوا السفن والشوانى [1] وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر الذى جعلوه مقراً لأساطيلهم واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وإفريقية والمغرب والأندلس .

---

(١) جمع شونة (بفتح فسكون) المركب المعد للجهاد فى البحر . راجع القاموس وشرحه .

كان معاوية أول من غزا الروم فى البحر فقد أبحر إلى قبرص [١] سنة ٢٨ هـ كما أبحر إليها أهل مصر وعليهم عبدالله بن سعد بن أبى سرح ولقوا معاوية فكان على الناس. وصالحه أهلها على ٧٠٠٠ دينار يؤدونها إلى المسلمين فى كل سنة، وعلى أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم إليهم ويكون طريق المسلمين إلى العدو إليهم وبذلك صارت قبرص نقطة اتصال بين أهل الشام وأساطيلهم التى أخذت تمخر فى بحر الروم [٢]

وحارب عبد الله بن سعد بن أبى سرح قسطنطين بن هرقل كما قدمنا ـ وانتصر عليه فى موقعة ذات السوارى سنة ٣١ هـ وكانت سفن المسلمين مائتى سفينة فى حين أن سفن الروم كانت أكثر من ٦٠٠ سفينة.

ومن ثم صارت الدولة الإسلامية فى عهد عثمان دولة بحرية

---

(١) قبرص جزيرة ذات أهمية كبرى كانت الدول تتصارع عليها لموقعها الممتاز الذى يتيح لمن يسيطر عليها أن يسود هذا الجزء من البحر وأن يبحر منها إلى لبنان ومصر وغيرهما ولذا استهل العرب نشاط أسطولهم بالاستيلاء عليها.

(٢) ركبت أم حرام بنت ملحان البحر مع زوجها عبادة بن الصامت فى هذه الغزوة وكانت قد طلبت من النبى صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله لها أن تكون ممن يركبون ثبج هذا البحر فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم: أنت فى الأولين ـ راجع نص هذا الحديث فى البخارى: كتاب الجهاد، ورواه مسلم فى الإمارة.

بما استولت عليه من سفن الروم وبما استحدثه معاوية وعبد الله ابن سعد من السفائن . ومن ذلك الوقت أصبحت الحملات البحرية تتوالى على البلاد البيزنطية. واستعمل معاوية عبد الله بن قيس الحارثى على البحر ، فرتب الغزو عليها صيفاً وشتاء وغزا خمسين غزاة بين صائفة وشاتية .

استطاع المسلمون بعد أن مرنوا على ركوب البحر والحرب فى أساطيله ، أن يفتحوا جزر بحر الروم مثل : رودس التى كانت بها دار لصناعة السفن الرومية ، وسردانية (سردينيا) وصقلية (سيسليا) ومالطة وإقريطش (كريد) غيرها .

تدوين القرآن في المصاحف

تدوين القرآن فى المصاحف

ظلت الصحف التى كتبها زيد بن ثابت بأمر أبى بكر عند حفصة بنت عمر صدراً من خلافة عثمان . وكانت الفتوح فى ذلك الوقت قد اتسعت وتفرق المسلمون فى الأمصار ، وأخذ أهل كل مصر قراءتهم عن رجل من القراء. وكانت وجوه القراءة مختلفة باختلاف الأحرف التى نزل عليها القرآن إذ كان القرآن قـــد نزل على سبعة أحرف كما ثبت فى الأحاديث الصحيحة .

ولما كانت غزوة أرمينية وأذربيجان فى سنة ٢٥ هـ اجتمع أهل الشام بأهل العراق وكان فيمن غزاها مع العراق حذيفة بن اليمان ، فرأى كثرة اختلاف المسلمين فى وجوه القراءة ، وسمع ما كانوا يقولونه حين يقرأ فريق منهم بقراءة لم تسمع عن غيره ، فكانوا يتمـارون حتى يكفر بعضهم بعضاً ولم ير منهم نكيراً لذلك ولا إكباراً له ، ففزع إلى عثمان رضى الله عنه فأخبره بالذى رأى وقال : أدرك الناس قبل أن يختلفوا فى كتابهم كما اختلفت اليهود والنصارى ! وكان عثمان قد أدرك بوادر الخلاف مما سمعه من أنباء القراء فى المدينة . وقراء المدينة إذا اختلفوا فغيرهم من أهل الأمصار الأخرى لابد أن يكونوا أشد اختلافا، وإن من وراء هذا الاختلاف شراً كبيراً ! فجمع أعلام الصحابة وذوى الرأى منهم ليستشيرهم

فى علاج هذه الفتنة فأجمعوا رأيهم على أن يأخذوا الناس بقراءة واحدة من تلك الوجوه المتعددة وأن يحملوهم على حرف واحد من الأحرف التى نزل عليها القرآن وهو لغة قريش .

روى البخارى بسنده عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق » .

وكان نسخ هذه المصاحف بإشراف عثمان وأعلام الصحابة وذلك إجماع منهم على أن القراءة التى حمل عثمان الناس عليها درءاً للاختلاف

هى التى قرأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى التى نزل بها القرآن وأن ماعداها من اللغات التى قرىء بها القرآن قد نزل القرآن عليها أول الأمر تيسيراً على الناس فلما زالت هذه الضرورة واجتمع الناس على لغة قريش لم يكن ثمة داع للاستمرار على القراءة بها . ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن أبى داود بسند صحيح عن سويد بن مقرن قال: «قال على لا تقولوا فى عثمان إلا خيراً فوالله ما فعل الذى فعل فى المصاحف إلا عن ملأ منا ، قال: ما تقولون فى هذه القراءة فقد بلغنى أن بعضهم يقول إن قراءتى خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفراً قلنا فما ترى ؟ قال : أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف ، قلنا فنعم ما رأيت » .

والفرق بين جمع أبى بكر وجمع عثمان أن جمع أبى بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شىء بذهاب حملته لأنه لم يكن مجموعا فى موضع واحد فجمعه فى صحائف مرتباً لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبى صلى الله عليه وسلم .

وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف فى وجوه القراءة حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض فخشى من تفاقم الأمر فى ذلك فنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد

مرتباً لسوره واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش ، لأنه نزل بلغتهم .

وجمع القرآن فى مصحف واحد مأثرة من مآثر عثمان ومنقبة من مناقبه فقد سد بذلك باب الخلاف فى أعز ما يقدسه المسلمون وهو كتابهم . « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

الثورة على عثمان وأسبابها(١)

كان عثمان رضى الله عنه سهلا ليناً ليس فيه حزم أبى بكر وعمر وكانت هذه الصفة لابد منها لمن يدير دولة متسعة الأرجاء، وبخاصة فى دور البساطة والزهد إلى دور الغنى والترف. وقد اغتبط المسلمون بخلافته لما كان فيه من لين ويسر بعد شدة عمر وتضييقه وتبعاً لذلك كان من المنتظر أن ينتهى عهده بسلام على هذه الصورة، ولكن الذى حدث هو التذمر من حكمه والثورة عليه تلك الثورة التى كانت نهايتها قتله ثم فتح باب الفتنة على مصراعيه بين المسلمين. وأهم هذه الأسباب التى أدت إلى هذه الثورة هى :

١ ـ كان رضى الله عنه ليناً فى غير مواضع اللين، فكثيراً ما كان بعض أهل الأمصار يثورون بعاملهم ويعزلونه (كما حدث فى البصرة إذ عزلوا أبا موسى الأشعرى وولوا عبد الله بن عامر) فيقرهم على ما فعلوا ويقبل ذلك منهم.

وكان ضعيف الإرادة منقاداً لابن عمه مروان بن الحكم الذي ما كان يشير عليه فى الغالب بما فيه المصلحة العامة وقد وصفه السيد أمير على بقوله : « كان عثمان شيخاً كبيراً » — إذ تولى الخلافة وهو

(١) راجع مذكرات المرحوم عبد الحميد العبادى.

فى سن السبعين — ضعيف الإرادة ومن ثم لم يستطع الاضطلاع بأعباء الحكم رغم نزاهته وفضائله الكثيرة .

٢ — بعض محدثات اعتدوا بها عليه .

أخذ على عثمان جمعه الناس على مصحف واحد كما سبق ، وإتمامه الصلاة بمنى وبعرفة ، وقد عاب عليه ذلك غير واحد من الصحابة وقال له على : ما حدث أمر ولا قدم عهد. ولقد عهدت النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر يصلون ركعتين وأنت صدراً من خلافتك ، فقال عثمان : رأى رأيته ... كما أخذوا عليه أنه حمى الحمى فأجابهم بأن عمر قد فعل ذلك قبله ولم يفعل هو سوى أنه زاد فى هذا الحمى لزيادة إبل الصدقة . ولما امتنع بعض المسلمين من إعطائه بعض ما يملكون ليوسع به المسجد أخذه عنوة وقال : قد فعل ذلك عمر من قبلى .

وهو أول من أقطع القطائع ، وأول من خفض صوته بالتكبير وأول من أمر بالأذان الأول يوم الجمعة ، وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة ، وأول من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم

والحق أنهم لسخطهم عليه حاولوا أن يتصيدوا له الأخطاء، فعابوا عليه الكثير بحق وبغير حق، حتى إنهم عابوا عليه ما كان فيه المصلحة لهم ولدينهم كتدوين المصاحف ، وتوسيع المسجد النبوى ، وغيرها

من الأعمال التى قام عمر بن الخطاب بمثلها ولم يرتفع صوت واحد بالتكير عليه ، ولكن لضعفه ولينه ولسخطهم عليه عابوا عليه ما هو منقبة له ومأثرة !

٣ ـ العصبية . ولها مظهران :

(ا) نظر بطون قريش بعضهم إلى بعض :

اختص عثمان أقرباءه بالمناصب الكبرى فى الدولة وحاباهم فى الأموال ، فقد استعمل عليها سعيد بن العاص وهو أموى ، وولى على البصرة عبد الله بن عامر وهو ابن خاله ، وجمع الشام كلها لمعاوية وهو أموى صميم ، وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبى سرح وهو أخوه من الرضاع ، وجعل مروان بن الحكم أمين سره وكاتبه وهو ابن عمه . ولما غزا عبد الله ابن سعد إفريقية غزاته الأولى نفله خمس الخمس ، ولما غزاها الثانية باع الخمس الذى خص بيت المال لمروان بن الحكم بثمن بخس ، فتذمر لذلك بنو هاشم وسائر بطون قريش . ومما زاد اضطغانهم أن الأمويين قد ناهضوا الإسلام فى أول أمره ، وأن منهم من نزل القرآن بذمه صراحة ، ومن أهدر النبى صلى الله عليه وسلم دمه ، وأنهم بوجه عام من المؤلفة قلوبهم .

(ب) نظر القبائل العربية إلى قريش .

لقيت قريش بالإسلام عزاً عظيما فكانت فيها النبوة والخلافة ، ودرج الخلفاء الثلاثة الأوائل على استعمال رجالات قريش على الأنصار والجند ومناصب الدولة الكبرى ، وقد حاول عمر بن الخطاب أن يكف من غلواء قريش ، فكان يمنعها الخروج من الحجاز خوف الفتنة ، فلما جاء عثمان أجاز لها الخروج إلى الأقاليم المفتوحة كما أجاز لها امتلاك الأموال بهذه الأقاليم .

تلك المنزلة الاجتماعية الرفيعة التى بلغتها قريش فى صدر الدولة الإسلامية ، قد آلمت عامة العرب الذين فتحت هذه الفتوح الكبرى بسيوفهم . وقد ظهر امتعاض عامة العرب لتلك الحال بالكوفة والبصرة وكان معظم من بهما من العرب من البادية دون الحجاز : وفى ذلك يقول بعض شعراء الكوفة :

يلينا من قريش كل عام أمير محدث أو مستشار

لنا نار نخوفها فنخشى وليس لهم فلا يخشون نار

فقد عبر هذا الشاعر عن امتعاضه من سيطرة قريش وهيمنتها .

٤ ـ عبد الله بن سبأ (ابن السوداء) .

رجل يهودى من صنعاء أسلم أو تظاهر بالإسلام ليكيد للمسلمين فقد عرف كيف يستغل السخط الذى كان سائدا فى المجتمع الإسلامى ويجعل بأسهم بينهم شديداً !

انتقل إلى الحجاز فالبصرة فالكوفة فالشام فمصر ، يريد إضلال الناس كما يقول ابن الأثير: فلما كان بالشام لقى أباذر الغفارى الصحابى الجليل فقال : يا أباذر ألا تعجب من معاوية يقول : المال مال الله ! ألا إن كل شيء لله كأنه يريد أن يحتجنه دون الناس ويمحو اسم المسلمين (أى من ديوان العطاء) فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟ قال يرحمك الله يا أباذر ! ألسنا عباد الله والمال ماله ؟ فقال فلا تفعله ، قال : سأقول مال المسلمين . ولقى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له مثل ذلك فقال : أظنك يهودياً ، فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به عبادة وأتى به معاوية فقال: هذا والله بعث إليك أباذر وكان أبو ذر يأخذ بظاهر قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » فكان يقوم بالشام ويقول : يامعشر الأغنياء : واسوا الفقراء بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . فمازال حتى ولغ الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء ،وشكا الأغنياء ما يلقون منهم إلى معاوية فسيره إلى عثمان بالمدينة فنفاه عثمان إلى الربذة ، فمازال بها حتى توفى ! على أن

ابن السوداء لم يطب له مقام بالشام لشدة ضبط معاوية هذا الإقليم فخرج إلى مصر واستقر بها وهنا يأتى للناس بنغمة أخرى غير النغمة التى جاءهم بها فى الشام فنراه يؤلف له حزباً بها ويتخذه شيعة ، وكان مما يخاطب به أهل مصر قوله : العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ويكذب أن محمداً يرجع » فوضع لهم الرجعة وقبلها الناس . وقوله « إنه كان لكل نبى وصى وعلى وصى محمد ؛ فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب على وصيه ؟! وإن عثمان أخذها بغير حق فانهضوا فى هذا الأمر وابدءوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس » .

وروج بينهم نظرية الحق الإلهى التى أخذها عن الفرس الذين كانوا قد احتلوا اليمن قبل الإسلام واستند عليها فى أن عليا هو الخليفة بعد النبى صلى الله عليه وسلم وأنه يستمد الحكم من الله . وقد لقيت أفكار ابن السوداء «رأس الفتنة» القبول فى مصر ، وساعده على ذلك تبرم أهلها على عثمان وعامله ابن بن أبى سرح وانضمام كل من محمد ابن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر للساخطين فنجحت سياسته فى مصر!

ولعل هذا هو السبب فى أن المصريين كانوا أنصار على ابن أبى طالب فى هذه الفتنة !

خروج الثوار إلى المدينة

ابتدأت الفتنة فى الكوفة فى ولاية سعيد بن العاص، وكان أول مظاهرها سخط أهلها على عمال عثمان خاصة وقريش عامة. وكان على رأس الساخطين الأشتر النخعى وثابت بن قيس الهمذانى وآخرون ممن لهم ذكر فى الفتنة وفى أيام على كرم الله وجهه.

وكتب سعيد وأشراف أهل الكوفة إلى عثمان فى إخراجهم فكتب إليهم أن يلحقوهم بمعاوية فلما صاروا إليه جرى بينه وبينهم حوار، وأعيا معاوية أمرهم فسيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان على حمص فأقاموا عنده مدة ثم أظهروا الاستقامة وعادوا إلى الكوفة فى غيبة سعيد بن العاص.

حدث مثل ذلك فى البصرة ومصر وكان فى البصرة من الناقمين حكيم بن جبلة العبدى، وهو ممن اتصل بابن سبأ وتأثر بدعوته.

وأما مصر فقد ظهر الانحراف من عثمان فيها، فى موقعة ذات السوارى سنة ٣١ هـ فبعد مارجع ابن أبى سرح كان أول ماتكلم به محمد ابن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر هو العيب على عثمان وماخالف به أبا بكر وعمر.

كثر الطعن على عثمان وعماله وبلغه ذلك، فندب أربعة من ثقاته

ليتعرفوا أسباب هـــذه القلاقل ويقفوا على حقيقة الحال فبعث محمد ابن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر ؛ وقد عاد ثلاثة منهم دون أن يجدوا مبرراً لهـذه الشكايات ولم يعد عمار بن ياسر فقد انضم إلى جماعة ابن سبأ .

لم يكتف الخليفة بذلك فرأى عند ماوافى موسم الحج أن يدعو كبار عماله : معاوية ، وعبد الله بن عامر ، وسعيد بن العاص ، وعبد الله ابن سعد بن أبى سرح وأشرك معهم عمرو بن العاص — ليستشيرهم فى الأمر فنصحوه ؛ غير أنه لم يغير خطته ولم ينتصح ، مع أن الحكمة كانت تقضى بقبول ماعرضه معاوية مثلامن الذهاب معه إلى الشام أو أن يرسل إليه جنداً من جند الشام ولو قبل لانسدّ باب الفتنة .

دور العمـل :

كان المنحرفون عن عثمان قد اجتمعت كلمتهم على الخروج إلى المدينة فى غيبة عمالهم ولكن ذلك لم يتهيأ لهم ، فأظهروا الخروج للحج ، فخرج من مصر والكوفة والبصرة جمع بين الستمائة والألف ، وكانت نيتهم استصلاح عثمان وإلا فعزله ، ووافوا خارج المدينة ودار الحديث بينهم فيمن يخلف عثمان فاختلفوا فكان هوى أهل البصرة فى طلحة وهوى

أهل مصر - وعلى رأسهم ابن سبأ - فى على ، وعمل كل فريق على أن
يتم الأمر لمن يميل إليه ويهواه دون غيره .

نزل الثوار بظاهر المدينة وأرادوا عثمان على أن يصلح من أمره أو
يعتزل ، فخطبهم خطبة أظهر فيها النزوع والتوبة ، فسر الناس بذلك
وهموا بالعودة إلى أمصارهم واتجهوا إليها ولكن مروان بن الحكم
افتعل كتاباً على لسان الخليفة وختمه بخاتمه وبعث به إلى عامل مصر
يأمره بحبس رجال ممن خرجوا من مصر والمثلة بهم فظفر الثوار بهذا
الكتاب ، فكروا راجعين إلى المدينة واقتحموها وتمكنوا منها . غير
أنهم لم يمنعوا الخليفة فى أول الأمر من حرية الرواح والغدو
والصلاة بالناس ،

كان أهل المدينة وكبار من بها من الصحابة فاترين فى الدفاع عن
عثمان ! وإلا فكيف تمكن الثوار مع قلة عددهم من الاستبداد بالأمر
والتحكم فى المدينة ومن بها ؟! وهذا الفتور يعزى إلى أنهم هم أنفسهم
غير راضين عن سياسة عثمان وحاولوا نصحه فكان يجيبهم ثم يعود إلى
ما كان . أما ما آلت إليه الفتنة من حصار عثمان بداره ومنع الماء عنه
ثم تسور داره واقتحامها عليه فذلك مالم يتوقعوه ولم يدر بخلدهم !

لما رأى الثوار أن عثمان لم يعتزل الحكم وأن موسم الحج قد انتهى
وأن النجدات التي طلبها من ولاة الأمصار قد دنت - اتجهت نيتهم إلى

قتله ، فحاصروه فى داره اثنتين وعشرين ليلة ومنعوا الماء عنه وأخيراً اقتحموا عليه داره بعد قتال جرى بينهم وبين من تولى الدفاع عنه ، كالحسن والحسين ابنى على وعبد الله بن الزبير . وأراد رجل منهم أن يضربه بسيفه فأكبت عليه زوجه نائلة وتلقت السيف عنه ، فقطع أصابعها وضربه الغافقى بسيفه،وتوالت عليه ضربات الثوار وهو مكب على كتاب الله حتى قتلوه فى يوم الجمعة لثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة ٣٥ ه الموافق ١٧ يونيه سنة ٦٥٦ م . وبقتل عثمان انفتح على المسلمين باب شر لم يغلق حتى اليوم .

وقد وصف نيكلسون أثر هذه الفتنة فقال : « لقد مزقت الحروب الأهلية التى تلت هذه الفتنة وحدة الإسلام شر ممزق ولم يندمل بعد الجرح الذى أحدثته هذه الحروب » .

علي بن أبي طالب

كرم الله وجهه

٣٥ — ٤٠ هـ ٦٥٦ — ٦٦١ م

علي بن أبي طالب

كرم الله وجهه

٣٥ — ٤٠ هـ ٦٥٦ — ٦٦١ م

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، وكانت من السابقات إلى الإسلام .

ولد بمكة قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة ، ولما أصاب مكة جدب ، وكان أبوه كثير العيال ، سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عمه العباس أن يخففا عن أبي طالب مشقة العيش فضم العباس إليه جعفراً وضم الرسول عليه الصلاة والسلام علياً فنشأ منذ صباه في كنف الرسول وتحت رعايته ولما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم آمن به فكان كرم الله وجهه أول من آمن من الصبيان .

كان له في الإسلام مواقف مشهودة وكفاه شرفا أنه بذل نفسه فداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقبوله أن ينام على فراش النبي عليه الصلاة والسلام . وهاجر بعد أن أدى الودائع التي كانت عند الرسول لأهلها ، وزوجه الرسول صلوات الله عليه ابنته فاطمة في السنة الثانية من الهجرة ، فأنجب منها ولديه الحسن والحسين . وقد اتخذه النبي عليه الصلاة والسلام كاتبا له وشهد معه كل مشاهده ماعدا غزوة تبوك فإن النبي صلى الله عليه وسلم خلفه على المدينة .

اشتهر كرم الله وجهه بالشجاعة والمروءة والوفاء والحرص على مال المسلمين إلى غير ذلك من حميد الصفات. وكان رضى الله عنه فقيهاً فرَضياً عالماً بتفسير القرآن شاعراً خطيباً ، وصفه نيكلسون فقال : « كان على يعوزه حزم الحاكم ودهاؤه على رغم ما كان يمتاز به من الفضائل الكثيرة فقد كان نشيطاً ذكياً بعيد النظر بطلا فى الحرب مشيراً حكيما وفياً شريف الخصومة ، نبغ فى الشعر والبلاغة » .

كما وصفه رجل من شيعته بما هو أهله حينما طلب منه معاوية ذلك إذ يقول : « كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يعجبه من الطعام ماخشن ، ومن اللباس ماقصر ، وأشهد لقد رأيته فى محرابه يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ! يقول: يادنيا غرى غيرى إلىّ تعرضت ؟ أم إلىّ تشوقت ؟ هيهات هيهات ! قد باينتك ثلاثاً لارجعة فيها فعمرك قصير وخطرك حقير، آهِ من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق » فأبكى هذا الوصف معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن !

ولاشك أن نشأته فى بيت الرسول صلوات الله عليه كان لها أكبر الأثر فى تحليه بهذه الأوصاف الحميدة .

ولما توفى النبى صلى الله عليه وسلم اشتغل على مع بعض أهل بيته بتجهيزه ودفنه ! وكان يرى نفسه أحق بالخلافة من بعده لما له من السابقة

والمواقف المشهودة فى الإسلام وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وزواجه من ابنته فاطمة .

وكان أبو بكر رضى الله عنه يستشيره فى مهام الأمور ، وكذلك كان عمر ، لما له من الفقه والدين والذكاء وغير ذلك ، ولما بايع الناس عثمان لازمه فى صدر خلافته ، ولكن استبطان عثمان لذوى قرباه أفسد عليه آراءه فظن الناس أن العلاقة قد توترت بينهما !

ولما قتل عثمان لم يكن انتخاب على للخلافة على الصورة التى تم بها انتخاب من سبقه من الخلفاء ، فقد كان كثير من الصحابة متفرقين فى الأمصار ، وكانت المدينة فى قبضة الثوار وبقيت - كما يروى الطبرى - بعد مصرع عثمان خمسة أيام وأميرها الغافقى بن حرب والثوار يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه ، يأتى المصريون علياً فيختبىء منهم ، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، ويطلب البصريون طلحة فيباعدهم .

ولما كان أمر المسلمين لا يستقيم دون خليفة أتى جماعة من المهاجرين والأنصار علياً وألحفوا عليه أن يلى أمر المسلمين ، إذ لا يوجد من هو أحق بالخلافة منه . فقبلها وهو كاره لها ، وتردد بعض المهاجرين فى بيعته كسعد بن أبى وقاص وابن عمر وتخلف بعض الأنصار كحسان ابن ثابت وأبى سعيد الخدرى ، كما ترك بعضهم المدينة إلى الشام ومكة

دون أن يبايعوا ، وعلى ذلك فقد تمت بيعته بالأغلبية دون أن ينعقد عليها الإجماع كما كان الحال فى بيعة الخلفاء الذين سبقوه ثم خطب الناس خطبة عامة ، وكانت بيعته لخمس بقين من ذى الحجة سنة ٣٥ ﻫ .

أول أعماله :

بدأ على عهده بأمرين إليهما ترجع الحروب التى وقعت فى عهده ، والأحداث التى نغصت عليه حياته !

١ — آوى الثوار فى جيشه بدلا من أن يقتص منهم أو يقاطعهم على الأقل ؛ وبذلك جعل لخصومه سبيلا إلى اتهامه بشىء من دم عثمان.

٢ — لم ينتظر حتى يبايعه أهل الأمصار ، ظناً منه أن بيعة أهل المدينة والثوار كافية فى جعل أهل الأمصار يعترفون بخلافته ، فبادر لما اتصف به من الشدة فى الحق إلى عزل ولاة عثمان الذين كانوا مثار الفتنة عليه والتولية مكانهم على رغم نصيحة بعض الصحابة ومن بينهم ابن عمه عبد الله بن عباس بالتريث حتى تهدأ الحالة وتستقر الأمور ، فولى على البصرة عثمان بن حنيف ، وعلى الكوفة عمارة بن شهاب ، وعلى الشام سهل بن حنيف ، وعلى مصر قيس بن سعد بن عبادة ، وعلى اليمن عبيد الله بن عباس ، وكلهم بلغ وجهته إلا سهل بن حنيف وعمارة ابن شهاب فإنهما ردا .

أضف إلى ذلك أنه قام باسترداد الإقطاعات التى كان عثمان قد منحها بعض بطانته والمقربين من أهل بيته - إلى بيت المال واتبع فى توزيع الأرزاق القواعد التى سنها عمر. وقد أحفظ ذلك من على قلوب أولئك الذين كانوا قد استفادوا فى عهد عثمان على حساب بيت مال المسلمين وزاد فى حنقهم عليه!

الخصومة بينه وبين معاوية :

لم يدخل معاوية فى بيعة على لأسباب منها :

١ - أنه كان يتهم علياً بشىء من دم عثمان ويرى نفسه ولى دم عثمان.

٢ - أن علياً آوى قتلة عثمان فى جيشه بدلا من أن يقيم عليهم الحد.

٣ - أن علياً تسرع فى عزله عن الشام، وهذا أمر شديد على رجل كمعاوية اعتاد الحكم والرياسة زمناً طويلا.

رأى على امتناع معاوية عن الدخول فى بيعته واستغلاله مقتل عثمان فى إثارة الناس عليه [1] فصمم على قتاله، وأخذ يحشد جيشاً لإرغامه على

---

(١) كان معاوية يرقب ما تجرى به الأحداث ويعلق قميص عثمان على منبر المسجد الجامع مخضبا بدمه وأصابع زوجه نائلة معلقة فيه ليستثير أهل الشام للاقتصاص من قتلة عثمان وكان الذى حمل القميص إلى معاوية هو النعمان بن بشير الأنصارى.

الدخول فى طاعته . وإنه لكذلك إذ ورد عليه مالم يكن فى حسبانه وهو: خروج عائشة وطلحة والزبير عليه بمكة .

موقعة الجمل !

عند ماحوصر عثمان خرجت عائشة إلى مكة حاجة ، وبعد أن فرغت من حجها وأرادت الرجوع إلى المدينة ، بلغها قتل عثمان وتولى على ، فساءها ذلك وعادت إلى مكة ، وجعلت تخطب الناس وتحثهم على المطالبة بدم عثمان ، وكان أول من أجابها عبد الله بن عامر الحضرمى (وكان أميراً لعثمان على مكة) ثم قدم عليها فى مكة طلحة والزبير من المدنية؛ وعبدالله ابن عامر من البصرة ، ويعلى بن أمية من اليمن ، وكثر أتباعها ، ثم اعتزموا الخروج إلى البصرة وقد عرف يوم خروجهم بيوم النحيب لكثرة البكاء الذى كان فيه على تفرق كلمة المسلمين ! فلما وصلوها غلبوا عليها وخرج منها عثمان بن حنيف عامل على كرم الله وجهه. وكانت أم المؤمنين حفصة بنت عمر قد عزمت على الخروج مع عائشة ، ولكن أخاها عبدالله منعها من ذلك . وقد أرادت أم المؤمنين أم سلمة أن تنصح عائشة بالعدول عن رأيها فكتبت إليها فى ذلك كتاباً مطولا ولكنها لم تستجب لها .

أراد طلحة والزبير استمالة زعماء البصرة فكتبا إلى كعب بن سور

والأحنف بن قيس والمنذر بن ربيعة ، وكانوا سادة قومهم فذكروهم بأمجادهم ورياساتهم . . . وقد ردّ المنذر على كتابهما قائلا : « أما بعد ، فإنه لم يلحقنى بأهل الخير إلا أن أكون خيراً من أهل الشر ، وإنما أوجب حق عثمان اليوم حقه بالأمس ، وقد كان بين أظهركم فخذلتموه فمتى استنبطتم هذا العلم ، وبدا لكم هذا الرأى ؟[1] » .

كما حاول طلحة والزبير أيضاً استمالة عبدالله بن عمر ووعداه بالخلافة فرفض وتمسك برأيه ، وكان من رأيه أن انزواء عائشة فى بيتها أكرم لها ، فقال لهما : اعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها وأنتما المدينة خير لكما من البصرة ، والذل خير لكما من السيف ، ولن يقاتل علياً إلا من كان خيراً منه . وأما الشورى فقد والله كانت فقدم تأخرتما ، ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها فاكفيانى أنفسكما[2] .

خرج على لإخماد هذه الفتنة حتى يتفرغ لقتال معاوية ، وسار يريد أن يدرك عائشة ومن تبعها قبل وصولهم البصرة ، إلا أن هؤلاء سبقوه ودخلوها وحاول على أن يمنع نشوب القتال فحاول الصلح ولكن السبئية من جيش على خشوا من أن يتم الصلح فتدور الدائرة عليهم فأشعلوا نار الحرب فى غفلة من الفريقين فى ليلة مظلمة ذات ريح وبرد ، ووضعوا

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة .

(٢) المصدر السابق .

السلاح فى جند البصرة ففزع هؤلاء إلى سلاحهم وهاجموا جيش على، وظن كل من الفريقين بالآخر الغدر والخيانة ، فوقعت واقعة الجمل بعد أن كاد الخلاف ينحسم صلحاً !

كانت عائشة فى هودج على جملها فى أثناء الحرب (و من ثم سميت موقعــــة الجمل) وكانت المعركة شديدة ، واستمر القتال سبعة أيام وانتصر على بعد أن عقر جمل عائشة ، وقتل طلحة والزبير كما قتـل من الفريقـين عـدد كبير بلغت عدته كما قيل عشرة آلاف . ودخل علىّ البصرة وبقيت عائشة فى هودجها إلى الليل وأدخلها أخوها محمد بن أبى بكر إلى البصرة .

ولما أرادت عائشة الرجوع إلى المدينة جهزها على بكل ماتحتاج إليه، وودعها بنفسه وسيّر معها أولاده مسيرة يوم ، وشيعها رجاله وكان خروجها فى غرة رجب سنة ٣٦هـ . فسارت إلى مكة ، وحجت ثم ذهبت إلى المدينة واستقرت بها .

قالت عائشة لمشيعيها عند رحيلها : « إنه والله ما كان بينى وبين على فى القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندى ـ على معتبى ـ من الأخيار » فقال على : « أيها الناس صدقت والله وبرت ، وإنه ما كان بينى وبينها إلا ذلك ، وإنها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة » .

العاصمة الثانية للإسلام :

ولى علىّ على البصرة عبد الله بن عباس وجعل على خراجها زياد ابن أبيه ، وانتقل هو إلى الكوفة وجعلها مقراً لخلافته لأنها أقرب إلى الشام ولأنها أكبر بلد فى أغنى إقليم إسلامى وهو العراق . هذا إلى العداوة المستحكنة التى كانت بين أهل العراق وأهل الشام بوجه عام !

موقعة صفين

موازنة بين كفة علىّ وكفة معاوية .

من الواضح منذ البداية أن كفة معاوية كانت أرجح للأسباب الآتية :

١ - إن أهل الشام كانوا من خاصة العرب ، وقد ألفوا النظام والخضوع للسلطان إلى حد ما فى حين أن أهل العراق كانوا من أهل البادية أعرابا يميلون إلى الحرية المطلقة التى تشبه الفوضى .

٢ - إن مصر قد عزل عنها عاملها قيس بن سعد بمكيدة من معاوية وولى عليها محمد بن أبى بكر وهو ضعيف إذا قورن بقيس بن سعد ، وبذلك أمن معاوية جانب مصر التى يجب أن يكون فيها جيش قوى وحاكم قادر على مناهضة معاوية .

٣ - إن معاوية قد اجتذب إلى جانبه عمرو بن العاص ، وهو المعروف بالدهاء والحيلة، فانضمامه إلى معاوية أفاده كثيراً كما سنرى .

بعد أن عرفنا قوة كل من علىّ ومعاوية ووازنا بينهما نقول :

إن علياً أرسل إلى معاوية جرير بن عبد الله البجلى يدعوه لأن يدخل فيما دخل فيه الناس من البيعة له فأبى ، وكان معاوية مصراً

على قتال على بعد أن أوغر عليه صدور جند الشام لإيوائه قتلة عثمان فى جيشه .

وسار على من الكوفة فى تسعين ألفاً لخمس بقين من شوال سنة ٣٦ هـ وسار معاوية من الشام فى خمسة وثمانين ألفاً، وعسكر الجمعان فى سهل صفين . ثم بعث علىّ رسله إلى معاوية محاولا الصلح فلم يجد ذلك. وبعد قتال متقطع طيلة ذى الحجة سنة ٣٦ هـ تهادن الفريقان إلى آخر المحرم سنة ٣٧ هـ فلما استهل صفر ولم يحسم النزاع عادت الحرب بينهما من جديد واستمرت عدة أيام ورجحت كفة علىّ وكادت الدائرة تدور على أهل الشام لولا حيلة عمرو بن العاص، إذ أشار على أهل الشام برفع المصاحف وتحكيم القرآن بينهم وبين أهل العراق ، وحاول علىّ عبثاً أن يبين لجنده أنها خديعة فما كان جواب الكثير من جنده إلا أن قالوا أجب إلى كتاب الله فأجابهم علىّ مكرهاً وقبل التحكيم. ثم أرسل إلى معاوية الأشعث بن قيس يسأله عما يريد فقال معاوية: «نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله فى كتابه تبعثون منكم رجلا ترضونه ونبعث منا رجلا ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه » فعاد الأشعث وأخبر عليا فاختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى على كره من علىّ، واختار أهل الشام عمرو بن العاص. وكتب الفريقان عقد التحكيم واتفقا على اجتماع الحكمين فى دومة الجندل (مكان بين العراق

والشام) واجتمع الحكمان فى شهر رمضان سنة ٣٨هـ وفى اليوم المشهود الذى اجتمع فيه الحكمان تجلى دهاء عمرو فاستدرج أبا موسى حتى خلع عليا فى حين أقر عمرو خلع على وثبت صاحبه معاوية !

هكذا انتهت موقعة صفين التى قتل فيها من المسلمين ما يقرب من تسعين ألفاً ! وهو عدد لم يقتل مثله ولا قريب منه فى جميع المعارك الإسلامية من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وقوع هذه المعركة !!

ظهور الخوارج !

بعد عقد التحكيم عاد معاوية وأصحابه إلى دمشق وأخذ علىّ فى الانصراف، ولكن شتان بين عودة أهل الشام وأهل العراق: فأهل الشام رجعوا متحدين متفقى الكلمة ؛ أما أهل العراق فعادوا وقد وقع الخلاف بينهم ، فإن الذين كانوا بالأمس ينادون بالتحكيم قد أصبحوا ضد التحكيم ، وكانو يعتقدون أن بيعة علىّ شرعية فقبوله التحكيم نقض لهذه البيعة الشرعية ! وانشق جماعة منهم على الجيش عدتها اثنا عشر ألفا ، ورفضوا دخول الكوفة ونزلوا حروراء بظاهر الكوفة وأرسل إليهم علىّ رسلا ليحاجوهم حتى يعدلوا عن رأيهم ثم ذهب إليهم وحاجهم واستنظرهم حتى يصدر حكم الحكمين . وهؤلاء هم الخوارج الذين كان لهم شأن فى التاريخ الإسلامى .

يوم النهروان !

بعد أن انتهى التحكيم أخذ عليّ يستعد لقتال معاوية من جديد ، ولما اعتزم المسير إلى الشام جاءته الأخبار بأن الخوارج قد ساروا نحو المدائن وقد عابوا عليه قبوله التحكيم وارتكبوا كثيراً من الكبائر ، وكانوا يعتقدون أنهم وحدهم المسلمون حقاً ، وأن جمهور المسلمين قد ارتدوا إلى الكفر واستحلوا أموالهم فسار إليهم عليّ فاستصلح منهم طائفة ، وصرف طائفة أخرى عن القتال ، وقاتل من بقي فأتى عليهم أو كاد ، ولم يقتل من أصحاب عليّ سوى سبعة نفر .

رجحان كفة معاوية :

أراد علي ـ بعد أن فرغ من الخوارج ـ السير لقتال أهل الشام فاستمهله رجاله ريثما يستجمون ويستعدون غير أنهم أخذوا يتسللون من المعسكر فلا يعودون ، وجعل عليّ يستفزهم ويذمرهم بالخطب البليغة فلم يسمعوا له . وبينما كان يلقى الشدائد من تثاقلهم وتسللهم كان معاوية قد تمكن من الاستيلاء على مصر على يد عمرو بن العاص سنة ٣٨ هـ فحزن عليّ على ضياعها، وقتل محمد بن أبي بكر عامله عليها، ولم يقف معاوية عند هذا الحد بل أخذ يعد البعوث إلى أطراف البلاد الخاضعة لعلى للإستيلاء عليها فاستولى على الحجاز واليمن فازداد معاوية بذلك قوة على قوته .

مقتل عليّ !

أدرك أصحاب عليّ الخطر عند ماذهب معاوية إلى بيت المقدس ودعا لنفسه بالخلافة ، فكونوا جيشاً بلغ أربعين ألف مقاتل واستعدوا لقتال معاوية . وفى هذه الأثناء حدث أن ثلاثة من فتاك الخوارج وهم : عبد الرحمن بن ملجم ، والبرك بن عبد الله ، وعمرو بن بكر التميمى اجتمعوا وتذاكروا أمر الناس ، وترحموا على أهل النهروان واتفقوا فيما بينهم على أن يقتل ابن ملجم على بن أبى طالب والبرك معاوية ، وعمرو بن بكر . عمرو بن العاص . وتوجه كل واحد منهم قاصداً صاحبه : أما معاوية وعمرو فنجوا ، وأما على فأصابه ابن ملجم وهو خارج يدعو إلى صلاة الصبح بمسجد الكوفة ، وكان مقتله فى يوم الجمعة ١٧ من رمضان سنة ٤٠ هـ !

الحسن بن على

بعد مقتل علىّ كرم الله وجهه بايع أهل العراق ابنه الحسن ولكن الحسن رضى الله عنه لم تسترح نفسه لذلك ، فقد شاهد بنفسه ـ وحذره أبوه ـ أن أهل العراق يقولون مالا يفعلون ، وأنهم خذلوا أباه من قبل ورأى أنه لا قِبل له بمعاوية وجنده ، ورأى ما نزل بالمسلمين من فُرقة وما فعله الروم من الإغارة على أملاك المسلمين ، منتهزين فرصة الحرب الأهلية التى فرقت كلمة المسلمين ! ففضل رضوان الله عليه أن يحقن دماء المسلمين ، فسلم لمعاوية . فأرسل إليه معاوية كتاباً مختوماً من أسفله ليشترط لنفسه مايريد ، فأغدق عليه معاوية المال والضياع ،

وكان تنازل الحسن لمعاوية فى ربيع الأول سنة ٤١ هـ . وبذلك هدأت أحوال المسلمين ، وسموا هذا العام عام الجماعة . لاجتماع الناس فيه على إمام واحد .

وفى صحيح البخارى من حديث أبى بكرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين .

وقد استجاب الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وأصلح بابنه هذا الإصلاح العظيم .

خاتمـــة

فى المدينة الإسلامية زمن الخلفاء الراشدين.(١)

كان العرب قبل الإسلام يعيشون عيشة قبلية ، فلما جاء الإسلام أوجد من القبائل العربيـة المتفرقة فى عشر سنوات خير أمة أخرجت للناس . وقامت الدولة الإسلامية وازدهرت ونعم المسلمون بما جاء به الإسلام ، من العدل والمساواة والمحبة والإخاء والوفاء بالعهد ، وما إلى ذلك من مبادىء الإسلام السامية التى نزل بها القرآن الكريم .

وفى عهد الخلفاء الراشدين انساحت الجيوش الإسلاميـة فى ملك الفرس والروم ، فبسطت سلطان الإسلام على ملك الفرس ، وانتزعت من الروم الشام ومصر وإفريقية ، وصار للإسلام دولة لم تصل إليها أمة سبقتها ، ومدنية لم يعرفها العالم من قبل .

وأهم مظاهر المدنية فى زمن الخلفاء هى :

١ ـ الخلافة وقد تكلمنا فيما سبق بالتفصيل ، ولكننا نوجز القول عنها هنا فنقول :

إنها رياسة دنيوية أساسها الدين فكانت طاعة الخليفة واجبة شرعا

---

(١) راجع كتابنا تاريخ الحضارة الإسلامية ، مذكرات المرحوم عبد الحميد العبادى .

فيما يأمر به وينهى عنه مالم يخالف الشريعة،وكان الخليفة يستشير كبار الصحابة فيما يعرض من الأمور المهمة وأكثر ما كان ذلك فى المسجد النبوى ، وكان أكثر الخلفاء اهتماما بالشورى عمر بن الخطاب ، فقد كانت له شورى خاصة من أعلام الصحابة ، وشورى عامة من كل من له رأى من المسلمين ، وكان الخليفة يؤم المسلمين فى الصلوات ، ويخطبهم فى الجمعة والمهمات وليس بينه وبين المسلمين حجاب ، وهو فى معيشته كسائر الناس . وقد أثرت عن زهد الخلفاء وورعهم أخبار جرت مجرى النوادر .

السياسة العامة فى ذلك العهد :

تتبين فى عهد الخلفاء الراشدين سياسة عامة وأخرى خاصة : أما العامة فكان الخلفاء جميعاً فيها سواء ، وهى ترمى إلى نشر الإسلام وحمل الناس على العمل بما جاء به ، وكان الخلفاء أنفسهم هم القدوة فى ذلك للرعية ، وأما الخاصة فعرفت عن رجل الدولة عمر بن الخطاب وكانت ترمى إلى توحيد كلمة العرب والاحتفاظ بالروح العربية الحربية ، وألا تغرهم الحياة الدنيا وزينتها .

وقد إستتبع تنفيذ تلك السياسة أمورا منها :

١ ـ أنه أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب تنفيذاً لوصية النبى صلى الله عليه وسلم : لا يجتمع بجزيرة العرب دينان .

٢ ـ منع العرب من التوسع فى الفتح حتى يستطيع ضبط أمور المسلمين كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

٣ ـ منع قريشاً من الخروج من الحجاز إلى الأقطار المفتوحة خشية تفرق الكلمة ووقوع الفتنة .

٤ ـ منع العرب من الاستيلاء على الأراضى التى فتحت عنوة وأبقاها فى يد أصحابها على أن يؤدى خراجها .

غير أن هذه السياسة أهملت بعد موت عمر ، فإن عثمان أذن لقريش بالخروج إلى البلاد المفتوحة وآثر أقرباءه بوظائف الدولة وأقطعهم الأراضى التى كانت ملكا للدولة . وقد رأينا أثر ذلك فيما سبق .

ولما جاء علىّ أراد أن يسير على نهج سياسة عمر ، ولكنه لم يستطع لقصر مدته وكثرة الفتن التى وقعت فى عهده !

إدارة الحكومة :

بعد أن دانت جزيرة العرب للنبى صلى الله عليه وسلم ، ولى على كل إقليم ومصر أميراً واتبع عمر بن الخطاب تلك الخطة ، فقسم الدولة الإسلامية إلى أقسام إدارية كبرى ، وجعل على كل أميراً ذا اختصاص معين ووضع نظام القضاء ، وحدد الصلة بين الدولة والبلاد المفتوحة بتحديد الجزية والخراج الواجبين على أهل الذمة .

وأما القبائل في البادية فكان شيوخها في أغلب الأحوال هم الذين يجبون صدقاتها . والأمصار كان عليها عمال يقيمون بها .

وضع الدواوين :

الديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقـــوق الدولة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال ، والديوان كلمة فارسية الأصل معناها الدفتر أو السجل . ويطلق في الاسلام على سجلات الحكومة ، ثم أطلق على أمكنة هذه السجلات مجازاً .

ولم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد أبي بكر رضى الله عنه ديوان لإحصاء الأموال وضبط العطاء ، فلما كان زمن عمر رضى الله عنه كثر المال واتسعت البلاد ، فدونت الدواوين لوجود الدواعي ، فكان رضى الله عنه أول من وضع الديوان في الدولة الإسلامية .

ويروون في سبب وضعه أن أبا هريرة رضى الله عنه قدم بمال من البحرين فقال له عمر : ماذا جئت به؟ فقال: خمسمائة ألف درهم، فاستكثره عمر ، فقال له : أتدرى ما تقول ؟ قال نعم ، مائة ألف خمس مرات ، فقال عمر :أطيب هو ؟ قال: لا أعلم إلا ذاك ، فصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ، قد جاءنا مال كثير فإن شئتم كلنا

لكم كيلا ، وإن شئتم عددنا لكم عدًا ، فقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين، قد رأيت الأعاجم يدّونون ديواناً لهم فدوِّن أنت لنا ديوانا، فأخذ عمر بهذا الرأى وأمر بوضع الديوان .

وكان له ديوانان : ديوان الجند ، وديوان الجبـــاية ، وتحصر فى الأول أسماء الجند على حسب القبائل ومقدار أعطياتهم ، ويبين فى الثانى خراج الأقاليم الإسلامية .

الكتابة :

لم يكن يعرف القراءة والكتابة من العرب حين ظهور الاسلام إلا القليل الذى لا يتجاوز بضعة عشر رجلا ، من بينهم عمر . وعثمان وعلىّ ، وأبو عبيدة بن الجراح.

فلما ظهر الإسلام وقامت دولته فى المدينة ، اتخذ النبى صلى الله عليه وسلم كتابا له ، وكان عثمان وعلىّ وأبىّ بن كعب وزيد بن ثابت ، ممن يكتبون للنبى عليه الصلاة والسلام القرآن الكريم والرسائل التى كان يرسلها إلى الملوك والأمراء ، وبعضهم كان يكتب له حوائجه [1] .

ولما تولى أبو بكر رضى الله عنه الخلافة اتخذ عثمان كاتباً له ،

---

(١) راجع التنبيه والاشراف للمسعودى ص٢٤٥ صبح الأعشى ج ١ ص ٩٢.

وغدت الكتابة منصباً ذا أهمية للدولة ، وحين تولى عمر الخلافة كتب له زيد بن ثابت وغيره ، وحين اتسعت الفتوحات الإسلامية . ودونت الدواوين عين رضى الله كتابا لكل ولاية يكتب فى ديوانها. واتخذ عثمان رضى الله عنه مروان بن الحكم كاتباً له ، كما اتخذ على كرم الله وجهه عبد الله بن أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتباً له .

بيت المال :

هو المكان الذى كانت تحتفظ فيه أموال الدولة سواء أكان فى المدينة أو فى الأقاليم ولبيت المال موارد ، هى: الصدقة والغنيمة والفىء.

الصدقة :

الصدقة أو الزكاة : ما يؤخذ من أغنياء المسلمين ليرد على فقرائهم ومصادرها : السوائم (الإبل والبقر والغنم) والفضة والذهب ، وعروض التجارة ، والزروع والثمار . وقد بينت الشريعة لكل ذلك نصاباً معيناً لا تجب الزكاة فيما دونه ، وقدراً معيناً لا يؤخذ فوقه . ومصرفها ما ذكر فى قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » .

الغنيمـــة :

ما يغنمه المسلمون من أموال الكفار بالقتال والجهاد فى سبيل الله وهى أنواع : أسرى ، وسبى ، وأموال منقولة ، والواجب فى الغنم تخميسه وصرف الخمس إلى من ذكرهم الله تعالى بقوله: «واعلموا أن ما غنمتم من شىء فإن خمسة لله وللرسول . . . » الآية وقسمة الأربعة الأخماس الباقية بين القائمين .

الـــفىء :

كل مال وصل من المشركين عفواً من غير قتال ، ولا إيجاف خيل ولا ركاب ويدخل فيه الجزية والخراج والأعشار وغيرها .

الجـــزية :

ما كان يوضع على رءوس أهل الذمة من الرجال القادرين دون غيرهم ، وكانوا يقدرونها على حسب أحوال أهل الذمة غنًى وفقراً لكن لا تزيد على ثمانية وأربعين درهماً فى السنة ، ولا تنقص عن اثنى عشر درهما . وكانت تؤدى منجمة . وتسقط بالإسلام ، وهى فى نظير حمايتهم والدفاع عنهم فدافعها لا يقتل ولا يدعى إلى قتال ، وهو آمن على نفسه وماله .

الخـــراج :

وهو ما كان يوضع على الأرض التى فتحت عنوة ثم تركت بأيدى أصحابها ، على أن يؤدوا عنها الخراج . وأما الأرض التى أسلم أهلها عليها وهى من أرض العرب ، كالمدينة واليمن أو ملكها المسلمون عنوة وكان أهلها لا تقبل منهم الجزية كنصارى العرب فهى أرض عشرية .

العشـــور :

هى مايقابل الرسوم الجمركية فى زماننا . وأصل ذلك فى الاسلام أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلغه أن تجاراً من المسلمين يأتون أرض الحـــرب فيأخذون منهم العشر فكتب إلى أبى موسى الأشعرى وهو على البصرة : أن خذ من كل تاجر يمر بك من كل مائتى درهم خمسة دراهم ، وخذ من كل تاجر من تجار العهد (معنى أهل الذمة) من كل عشرين درهماً درهماً ، ومن تجـــار الحرب من كل عشرة دراهم درهماً .

مصارف بيت المـال :

ينفق من بيت المـال فى مصالح المسلمين ومرافقهم العامة ماتقضى الحاجة إلى إنفاقه ، وأهم هذه المصالح.

١ - أرزاق القضاة والولاة والعمال .

٢ - أعطيات الجند .

٣ - المنافع العامة مثل كرى الأنهار وحفر الآبار .

وكانت نفقات كل إقليم من أرزاق الجند وشق الترع وإقامة الجسور وما إلى ذلك ، تؤخذ من خراج كل إقليم وما يتبقى يرسل إلى المدينة فيوزع على المسلمين ، وهذا هو العطاء .

وكان أبو بكر يسوى بين الناس فى العطاء ، ولكن عمر فاضل بينهم على حسب سابقتهم فى الإسلام وبلائهم فى نصرة الدين أو القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففرض لكل واحدة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف درهم ، وفرض للعباس سبعة الآف درهم ، وفرض لكل من شهد بدراً من المهاجرين الأولين خمسة آلاف درهم ، وفرض لنفسه معهم خمسة آلاف ، وفرض لكل من شهد بدراً من الأنصار ، أربعة آلاف درهم ، وفرض لكل من هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم ، ولمن أسلم بعد الفتح ألفى درهم ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم .

القضاء .

لما تولى أبو بكر رضى الله عنه الخلافة أسند القضاء إلى عمر

ابن الخطاب . فظل سنة أو أكثر لا يختلف إليه أحد على أنه لم يلقب بلقب قاض [1] .

وفى عهد عمر لما انتشر الإسلام واتسعت رقعة البلاد الإسلامية واختلط المسلمون بغيرهم وكثرت مهام الخليفة استدعى ذلك تولية قضاة مستقلين عن الأمراء : فولى أبا الدراء معه قضاء المدينة ، وولى شريحاً قضاء البصرة ، وأبا موسى الأشعرى قضاء الكوفة ، ووضع لهم دستوراً يهتدون به (كتاب القضاء إلى أبى موسى الأشعرى [2]) فكان رضى الله عنه أول من ولى قضاة مستقلين فى الولايات الإسلامية وفوضهم فيه .

وكتاب عمر إلى أبى موسى يعتبر إلى وقتنا الحاضر من أسس القضاة ومن أهم نظمه وأصوله ، فقد جمع فيه عمر جمل الأحكام ، وجعل الناس بعده يتخذونه إماما ، ولا يجد محق عنه معدلا ، ولا ظالم عن حدوده محيصاً .

وكان القضاء فى زمن الخلفاء مستقلا ذا منزلة رفيعة ، وكان يراعى

---

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ١٠٣ ، الخراج لأبى يوسف ص ١٢٥ .

(٢) راجع نص هذا الكتاب فى العقد الفريد ج١ ص ١٠٠ ، الأحكام السلطانية الماوردى ص ٥٩ وغيرهما .

فى اختيار القضاة الصفات التى تحقق العدالة والمساواة : من العلم والتقوى والعدل والعفة ومايتصل بذلك.

وكان فى كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الأحكام، فكانوا يستفتونهم إذا أشكل عليهم الأمر . ولم يكن تعيين القضاة مانعاً الخلفاء من نظر أية قضية ترفع إليهم .

الجيش :

لما جاء الإسلام كان كل مسلم جنديا له من حبه لدينه ما يبعثه على المبادرة إلى الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله .

ولما ولى عمر الخلافة عنى بأمر الجند ، فأنشأ لهم ديوانا خاصا للإشراف على شئونهم بمختلف أمورهم . وإليه يرجع الفضل فى إقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لإراحة الجند ، فبنيت الكوفة والبصرة والفسطاط ، كما جعل لهم الثكنات الحربية فى المدن الشآمية الكبيرة ، وذلك ما يعبر عنه بأجناد الشام .

وكان الجيش يتألف من أهل المدن ومن القبائل ، وكان قسمين : فرسان ورجالة : فأما الفرسان فكان سلاحهم الترس والسيف والرمح، وأما الرجالة فكان سلاحهم إما كسلاح الفرسان ، وإما الترس والقوس والسهم. وكانت فرق الرماة أهم فرق الرجالة. وكان الجيش

إذا زحف بنظام عسكرى ، فيكون مؤلفا من قلب وميمنة وميسرة ومقدمة وساقة . وكانوا يجعلون الخيل عادة فى المجنبتين . وكانت الفرسان تزحف صفوفا : أصحاب الرماح أولاً ثم الرماة ، وكانوا لا يغفلون عن حفظ خطوط رجعتهم إذا ساروا ، والمفاجأة والبيات إذا نزلوا .

الشرطة :

الشرطة : الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو الوالى فى حفظ الأمن والقبض على المفسدين. وأول من استن نظام العسس عمر بن الخطاب وكان يعس بالمدينة يحرس الناس. وفى عهد على كرم الله وجهه نظمت الشرطة وأطلق على رئيسها صاحب الشرطة .

الحياة الاجتماعية :

كانت معيشة المسلمين فى أيام الرسول صلوات الله عليه ، وفى أيام أبى بكر وعمر ، غاية فى السذاجة ، ولكنها من أواخر أيام عمر أخذ يظهر فيها أثر الترف للأموال الكثيرة التى أخذت تتدفق على المسلمين وقويت هذه الظاهرة أيام عثمان ، إذ أخذ كثير من رجالات قريش يبنون الدور الفخمة. وقد هدم الخليفة عثمان المسجد النبوى الذى كان مبنيا باللبن وبناه ثانية بالحجر والرخام .

وكان أهل المدينة أهل جد وعمل ، وكثيراً ما كانوا يحضرون مجالس العلم التى كان يعقدهـــا كبار الصحابة كعلى بن أبى طالب وعبد الله بن عباس ، رضوان الله عليهم أجمعين .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين ؟

أبو زيد شلبى
الأستاذ بكلية أصول الدين

الفهرس

حروب الردة ٣٩

ظهور الدولة الاسلامية ٦١

بدء الفتوح الاسلامية ٧٠

الموضوع	ص

الموضوع	ص

الموضوع	ص

الموضوع	ص

علي بن أبي طالب ١٩١

للمؤلف

١ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى

٢ ـ سيف الله خالد بن الوليد

كتب للمؤلف

١ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى
٢ ـ سيف الله خالد بن الوليد